د . يوسف الحوراني

مجاهل تاريخ الفينيقيين

خلال

سانخونياتن البيروتي و فيلون الجبيلي

(نصوص وأبحاث)

دار الثقافة

بيروت - لبنان

د. يوسف الحوراني

مجاهل تاريخ الفينيقيين

خلال

سانخونياتن البيروتي و فيلون الجبيلي

(نصوص وأبحاث)

منشورات
دار الثقافة
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة

كتب للمؤلّف

- الإنسان فرد لا جماعة «دراسة اونتولوجية»، نشر دار مكتبة الحياة ١٩٥٦.
- الإنسان والحضارة «مدخل دراسة»، الطبعة الثانية، نشر المكتبة العصرية ١٩٧٢.
- لبنان في قيم تاريخه (العهد الفينيقي)، الطبعة الثانية، دار النهار للنشر ١٩٩٢.
- البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم، الطبعة الثانية، دار النهار للنشر ١٩٩٣.
- جماليات الحكمة في التراث الثقافي البابلي، دار النهار للنشر ١٩٩٤.
- قانا الجليل في الجنوب اللبناني، بلغات ثلاث، نشر وزارة السياحة اللبنانية ١٩٩٥.
- المجهول والمهمل من تاريخ الجنوب اللبناني (جبل عاملة)، من سجلّات الفراعنة للألف الثاني ق.م.، نشر دار الحداثة - بيروت ١٩٩٩.

ملاحظة

إن أرقام فقرات النصوص المعتمدة في هذا البحث هي ذات الأرقام التي اعتمدتها دار النشر C.E.R.F الناشرة لكتاب المؤرخ أوزيب «الاستعداد للإنجيل». وكان للنص اليوناني الذي اعتمدته هذه الدار فضل كبير في توضيح كتابة بعض الأسماء. كما لترجمة «سيغيبيه دي سانت بريسون» دور في توضيح معنى بعض النصوص. وقد جرت مقارنة جميع ذلك مع ما اعتمده الباحثون الذين ورد ذكرهم خلال هذا الكتاب.

يقتصر فهرس الأعلام على أعلام النص الأساسي وحده.

المقدّمة

نستطيع اعتبار النصوص المشروحة في هذا الكتاب أنموذجاً من التراث الفينيقي الكنعاني المتناثر في ثقافات شعوب حوض المتوسط، والمثير للجدل بهويته وأصوله وغموض انتمائه.

وهذه النصوص، على قلتها ومع كل ما يحيط بها من غموض، تستمر بإثارة الباحثين في شؤون تاريخ المنطقة القديم منذ قرنين من الزمن، حيث نشرت حولها مئات الأبحاث، وكانت مادة هامة لعدد كبير من أطروحات «الدكتوراه» في كبريات الجامعات العالميّة، نظراً لما تطرحه من أسئلة محرجة حول مفاهيم عالميّة مألوفة وقناعات تاريخيّة مسلَّم بها، لدى المؤرخين المحترفين.

هذه المسلّمات والقناعات ليست محصورة بحدث تاريخي محصور يقبل الخلاف بالرأي وبإمكان التخطي إلى ما هو قبله وبعده. وإنما هي ترتبط بأساس حضارة البحر المتوسط، التي قامت عليها الحضارة الغربية الأوروبية-الأميركية المعاصرة. وعلى هذا الاعتبار يقوم جوهر الاهتمام الذي نكتفي باللّفت إليه بنشر حاشية لصفحة من أحد الأبحاث الصادرة في الولايات المتحدة لمعرفة جدِّيَّة هذا الاهتمام في السنوات الأخيرة، وقيمة ما يمكن كشفه من مستندات لإيضاح غوامضه وإنارة بيئته التاريخيّة.

إن الصعوبة التي تواجه الباحث في هذه النصوص المحدودة هي عينها التي يجد نفسه أمامها كل من يريد البحث في تاريخ لبنان القديم. فليس الغموض في الوثائق أو النقص بالمحفوظات فقط هما اللذان يحولان دون الوصول إلى الحقائق المطلوبة، وإنما عمليّة التداخل الواسعة بين تاريخ لبنان الكنعاني السامي وتواريخ البلاد التي هاجر إليها بنوه، أو تعاملوا معها بالتجارة ونشر مقومات حضارتهم ومعطيات تراثهم الأدبي، هي التي تجعل الباحث في حيرة، وتضعه في دوّامة من الارتباك والشكوك والتساؤلات.

Palestine Exploration Quarterly
1978

PHILO OF BYBLOS AND HELLENISTIC HISTORIOGRAPHY*

R. A. Oden, Jr.

---

* Much of the research for this paper, a preliminary form of which was delivered to the King's College, London, Old Testament seminar, has been done as part of the larger task of preparing a critical edition of the «Phoenician History». That edition is the joint effort of myself and of Professor Harold Attridge, formerly of the Society of Fellows, Harvard University and now of the Perkins School of Theology, Southern Methodist University. Many of Professor Attridge's insights have doubtless made their way into the present study; for those insights and for many other favours, I am grateful to him.

[1] James Barr, «Philo of Byblos and his "Phoenician History"», *BJRL*, 57 (1974), 17–68.

[2] P. R. Williams, «A Commentary to Philo Byblius» "*Phoenician History*", Ph.D. dissertation, University of Southern California, 1968; L. R. Clapham, «Sanchuniathon: The First Two Cycles», Ph.D. Dissertation, Harvard University, 1969; and A. I. Baumgarten, «*The Phoenician History* of Philo of Byblos», Ph.D. Dissertation, Columbia University, 1972.

[3] Eusebius's trustworthiness has been established at greatest length by P. Henry in his *Recherches sur la Préparation Evangélique d'Eusèbe et l'édition perdue des oeuvres de Plotin* (Paris, 1935), 16–26. Others have substantiated this; see K. Mras, «Sanchuniathon», *Anzeiger der österreichischen Akádemie der Wissenschaften*, Phil.-hist. Klasse 1952, No. 12, 178; J. Sirinelli and E. Des Places, *Eusèbe de Césarée: La Préparation Evangélique* (Sources Chrétiennes 206; Paris, 1974), 58–59; and B. Z. Wacholder, *Eupolemus* (Hebrew Union College Monographs, No. 3; Cincinnati, 1974), p. 48.

لقد نقل اللبنانيون القدماء الكثير من معتقداتهم وطقوسهم وصناعاتهم إلى البلاد التي هاجروا إليها، أو تاجروا مع أبنائها على الشواطئ، الإغريقيّة والأوروبيّة، وبوجه خاص إلى بلاد الإغريق وأرض مصر القديمة. وكان قدر التاريخ أن تقوم دراسات باكرة وتحدث نبشيات أثريّة جادة في هاتين المنطقتين، فتكشف الآثار والمعطيات الحضاريّة فيهما، بينما يتأخر حدوث هذا النشاط الباحث في أرض لبنان. وتكون النتيجة أن تحصل النصوص المكتوبة والروايات المتوارثة على ما يساندها من كشوفات الآثار الحديثة، ويجهد ورثاء هذه الحضارات المنبوشة، مع مناصريهم والمتحمسين لحضاراتهم من الباحثين، لطمس عمليات الاقتباس من حضارة لبنان، وأحياناً مناهضة كل عمليّة إحياء أو جمع لتراث ينصب علامات استفهام فوق أسبقيّة ما لديهم وأصالة ما يتغنّون به. وإن لم تكن هذه المناهضة مباشرة فهي متسترة خلف نوازع غير حياديّة.

* * *

لقد توقف التاريخ الكنعاني اللبناني عن مسيرته عندما قضى الإسكندر المقدوني على مدينة صور، وشلَّ عنفوانها بغيرة بلغت حد الحقد سنة ٣٣٢ ق.م. بينما قضى الحقد الروماني الأعمى بدوره على ابنة صور الكبرى «قرطاجة» سنة ١٤٦ ق.م. وبالقضاء على هاتين المدينتين، الدولتين، تمّ القضاء على خبرة إنسانيّة اجتماعيّة، عمرها يراوح الثلاثة آلاف عام، شهد لأصالتها في الحكمة كبار مفكري مجتمعي الإسكندر المقدوني، وكاتو الروماني؛ من أمثال أرسطو الفيلسوف الأكبر، الذي قال في سياسياته عن نظام قرطاجة السياسي: «إن الدليل على انتظام الدستور أنه، مع كونه يشرك الشعب في السياسة، لا يبرح ذلك الدستور على منهجه السياسي. ولم تطرأ عليه ثورة، ولم يقاومه طاغية. وذلك أمر جدير بالذكر.» (١٢٧٢ب). وعن ديمقراطيتهم قال: «... هذه عادة لا أثر لها في بقية الدساتير.» (١٢٧٣أ).

بالقضاء على هاتين المدينتين غدت حضارة الكنعانيين الفينيقيين كعجوز فاتها زمن الحمل والإيلاد، فبقيت تذوي حتى الاضمحلال.

وإن يكن الإسكندر ترك الهلّينية في الشرق المتوسطي كغرسة تتمثّل نسغها من زخم الروح الكنعانيّة، الباقية في صور وصيدا وجبيل، وتحوّل لنفسها ما تمثلته ومن تبنته من أبنائها الميامين، فإن كاتو، الشيخ الروماني المتعصب، لم يحترم دموع سيبيو القاهر لقرطاجة، بل نصح عسكرييه بذرِّ الملح فوق خرائبها، لئلا تعود حضارتها وتنبعث، متحدِّية لجحافل جيوش روما وأساطيل سفنها من جديد.

وكالتدمير العسكري الذي فرضه قدر صور وقرطاجة، كانت تسير بالموازاة ذاتها، موجة من التدمير الثقافي تجتاح المعالم الباقية للثقافة الكنعانيّة، وتقضي على الآثار والإنجازات الفنيّة والفكريّة، إمّا بامتصاصها وادعاء ملكيتها، كما كانت حالة الإغريق، أو باضطهادها ومحاربة حاملي أفكارها وحرق كتب تراثها، كما فعلت اليهوديّة، أو المسيحيّة السياسيّة بعد قسطنطين...

* * *

لم يصلنا أثر مكتوب كامل مختص بالفينيقيين، كنعانيي لبنان، برغم أنهم مبتكرو الحرف ومعلمو الناس الكتابة به، وبرغم وجود إشارات إلى كتب عنهم وسجلات لوقائع يومياتهم السياسيّة، كانت محفوظة في معابدهم. فما وصلنا عنهم هو شذرات يكون قد استعارها المؤرخون الغرباء عرضاً، لاستشهاد عابر، أو لاستهجان ورغبة تشهير، أو لإثبات واقعة لديهم، قد لا تخص لبنان وبنيه من قريب أو بعيد. وهكذا يجد الباحث في تاريخ الفينيقيين نفسه ملزماً بتفحص جميع تواريخ الأمم الأُخرى، ليعثر على ملامح تاريخ هؤلاء، ويستنتج من بين سطورها مزايا شخصيتهم ومعالم حضارتهم. وذلك دون أن يجد قرائن آثاريّة يعود إليها، كما هي الحالة مع حضارات غيرهم، باستثناء النزر القليل نسبياً الذي قدمته أرض «أوغاريت» في الأرض السوريّة الحاضرة.

وبينما وجدت شعوب حديثة ضمنت الحماية والاستمرار لتاريخ الذين تمثلوا الحضارة الكنعانيّة الواصلة إليهم من أرض لبنان، لم تحظَ هذه الأخيرة بمجتمع يُجمع على ادعاء وراثتها ويحمل بإخلاص مسؤولية المداعاة بإرثها وإنجازاتها.

وهكذا، وبعد ثلاثة وعشرين قرناً من التشرد والضياع، تجد حضارة «إيل» العلي الواحد، والبعل المتجدّد سنوياً، تجد نفسها غريبة حتى في موطنها وملاعب طفولتها، بسبب الإهمال والتردّد والمساومة على شرعية نسبها، برغم أنها كانت الأساس الثابت لحضارات ومعتقدات قادت الإنسانيّة إلى حيث بلغت اليوم بذهنيّة المغامرة والمخاطرة، لاكتشاف المجهول من أجل خير الإنسانيّة دون تمييز.

وكانت أقسى معاناة لمدركي أهمية هذه الحضارة في أن المنبرين للتبشير برسالتها، والمخلصين في الدفاع عنها، الجادّين بإبراز قيمة إنجازاتها، كانوا أفراداً قلائل، يعيشون غرباء، أو بدون سلطة في المجتمعات ذاتها التي قضت على حضارة أسلافهم. ومن بين هؤلاء نذكر ثلاثة، يصلح كلّ منهم ليكون أنموذجاً عن محامٍ يطالب بإرث، لا يجد من يدعمه في تحصيل حقه من مغتصبيه.

هؤلاء الثلاثة هم: فيلون الجبيلي، وأدريان وفرفوريوس الصوريين.

فيلون الجبيلي هو الأكبر أهمية لنا هنا، لكونه صاحب النص المثير للجدل. وكما تذكر مجموعة «سويداس» هو اسمه «هيرينيوس»، من مواليد سنة ٤٢ للميلاد.

أدرك فيلون الجبيلي الحيف الذي لحق بتراث بلاده، واكتشف التجنّي عليه من قبل كتاب الاغريق، فهبَّ يدافع عنه، ولكن باللغة الإغريقيّة ذاتها التي قضى انتشارها على لغة بلاده. وهكذا نجده كمن يقاضي خصماً هو الحكم في قضيته.

شاء أن يصحح أخطاء في المرويات الإغريقيّة، فترجم إليها أصلاً فينيقياً لعقائد ونظريات كانت منتشرة في زمنه عن أصل الكون وولادة الآلهة، أو حسب رأيه الأشخاص المؤلهين لدى الكنعانيين أسلافه. ولكن، كما يبدو، كان الزمن قد فات وغدا الخطأ هو القاعدة، فأهمل الناشرون ترجمته، أو أنهم قضوا عليها عمداً، وبقيت المرويات الإغريقيّة محفوظة، كما هي، مع معظم التراث الإغريقي، بينما لم يصلنا من كتابات فيلون سوى الإشارة إليها، وهذه النصوص التي نعالجها هنا، وهي كان الذي

اختارها، نقلها إلينا للتشهير بها وإبراز السقطات والتناقضات فيها، ولم يكن محايداً.

يقول النص أن فيلون وضع كتاباته في تسعة كتب تضمنت تاريخ الفينيقيين نقلاً عن مؤلف فينيقي يدعى «سانخونياتن»، إلى جانب دراسات وأبحاث في نقد الفكر الإغريقي والتراث اليهودي.

وقد وصلنا النص في اليونانيّة خلال كتابات المؤرخ الأسقف أوزيب القيصري البامفيلي الذي اختاره للمقارنة بينه وبين معتقداته المسيحيّة. وهو ما سنراه خلال معالجته.

* * *

أمّا الثاني، **أدريان الصوري**، الذي اخترناه من بين كثيرين من أبناء هذه المدينة العظيمة «صور»، برغم كونه الأقل شهرة اليوم، فهو الأنموذج عن العنفوان الذي حمله أبناؤها إلى العالم. فقد ذكره المؤرخ «فيلوستراتس» في كتابه «حياة السوفسطائيين»، جاعلاً إياه خليفة قدموس، معلم الإغريق، مسجلاً له أنه عند افتتاح دروسه ومحاضراته في بلاد أرسطو وأفلاطون بدأ بالقول: «ها إن الحرف يأتيكم مرّة أُخرى من فينيقيا». وقد أُعجب به الإمبراطور الروماني «ماركس أوريلس»، فنقله إلى روما، حيث سحر الرومان ببلاغته وإيقاعات خطاباته التي كانت الدعوات إليها توزع في مجلس الشيوخ الروماني في القرن الثاني للميلاد.

ولم تلقَ آثار هذا المعلم الفذّ مَنْ يعنى بجمعها ودراستها حتى الآن.

* * *

ولعل **فرفوريوس الصوري** كان آخر ركب المناضلين من أجل تراث بلادهم. وقد كانت عملية اضطهاد هذا المفكر، وحرق كتبه سنة ٤٤٨م أبلغ مأساة للحضارة الفينيقيّة الكنعانيّة التي كان يدين لها بمنطقه وتسامحه، ويحمل في أعماقه نوازع ذهنيتها وميولها الفكريّة البحثيّة.

وقد عرَّف مؤرخو الفلسفة «فرفوريوس» كتلميذ لأفلاطون

ولونجين، ووصفوه بسعة الثقافة وصفاء الذهن، ولكن القلائل هم الذين عرفوه كتلميذ للمدرسة الفينيقيّة في نقد التاريخ والأديان. وإن أية موسوعة ثقافيّة تصف هذا الفينيقيّ، المتأخر عن ركبه، بأنه غير مجدِّد، وهو بحق قد لا يكون جدَّد شيئاً في الفلسفة، لكنه كان مبدعاً سباقاً في فلسفة التاريخ. وهذا ما جعل الأسقف أوزيب ينقم عليه، وهو بالتالي ما حمل ضيقي الفكر من المسيحيين الأوائل على الحكم بالنار على كتبه، التي كان فيها أول من استعمل المنطق في النقد للفلسفة والدين والتاريخ معاً. وقد ضاعت آثاره، وما بقي منها لا يجد من يعنى به.

* * *

لقد كان هؤلاء يمثلون حضارة، تناثر تراثها، وانتشرت معطيات ذهنيتها وتجاربها في العالم المحيط بها، إلى حدٍّ بات معه التعرّف عليها صعباً، ناهيك من المطالبة بها وتعيين نسبها. وكمثل على ذلك نورد ما كتبه الجغرافي الباحث «سترابو» الإغريقي في القرن الأول للميلاد، حيث كتب عند بحثه في جغرافية الإلياذة يقول: «... إني أكرر القول أن الذين أوحوا لهوميرس بهذه الأقاليم هم الفينيقيون.» (٢:٣، ١٤).

لقد وصلنا النص المنسوب لسانخونياتن كقطعة يتيمة من تراث مكتوب ضائع، فكان بذلك ككسرة صغيرة من إناء ضخم فقدت بقاياه الأساسيّة. ولهذا نشأت الشكوك حوله واتهم بعضهم فيلون الجبيلي باختراع الاسم وتدبيج نصوص ميثولوجيّة لنحلها إياه. وكانت حجج هذا البعض في التقارب بين مروياته وأسمائها وما لدى الإغريق. ومن حقهم هذا الشك وهم علماء كبار مثل: رينان، لاغرانج، بوكهارت، مولر، غروب، موفر ودي بويسون، من حقهم الشك لأن الكسرة الصغيرة تشير إلى إناء عملاق الحجم، ووجود هذا العملاق ليس بالأمر المألوف. لكن أبحاثاً بمستوى المغامرة لدى بعض العنيدين تكشف ملامح العملاق المفقود من التاريخ. ونسمي بعضاً من هؤلاء للاسترشاد، ومنهم: فكتور بيرار، أستور، وسيروس غوردن، وأخيراً روبرت غريف الذي افترض

حدوث هجرة من بلاد كنعان إلى بلاد الإغريق في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد (٢:١).

***

كان الأولى بالأسقف المؤرخ أوزيب أن يتهم فيلون الجبيلي بالنحلة، لو أنه شكّ بذلك. ولكنه لم يفعل لأنه كان لديه مجموع كتابات فيلون عن سانخونياتن. وكان هو ابن المنطقة، ويجيد المقارنة بين ما يقرأ وما لدى الناس من تقاليد ومعتقدات وأعراف أشار إليها في تعليقاته على النص؛ حيث في تعليق يقول: «ويتفق أن يكون هؤلاء أنفسهم، ومنذ ذلك الزمن، لا يزالون معتبرين كآلهة من قبل جميع الناس، بحسب المدن والأمكنة.» (ف ٥٤). كما نجد في شهادة الفيلسوف فرفوريوس تصديقاً على ما أورده سانخونياتن دون أي شكّ بنسبة النص (ف ٢٢).

فلو كان في الأمر خدعة لما كانت هذه الخدعة لتنطلي على اثنين من كبار الباحثين، هما فرفوريوس وأوزيب، وكانا على خلاف كبير في أفكارهما ومعتقداتهما.

أمّا سانخونياتن، المثير للشكوك، فنورد رأي عالم كبير به هو «ويليام فوكسول أولبرايت» الأمريكي، خلال كتابه «يهوه وآلهة كنعان» (الفصل الخامس ب)، فهو رجّح أنه لاجئ من مدينة صور، أقام في بيروت في الربع الثاني من القرن السادس ق.م. ولكن نظريته في التكوين هي أقدم من زمنه بكثير، نظراً لاستعماله صيغ أسماء مغرقة في قدمها، مثل «تاوت وتورو». وهذان كانا يلفظان «تحوتي وتويري» في زمنه. كما لا يمكن أن يكون أخذهما من لفظ مصري بعد القرن الثالث عشر ق.م.

كما هو رأى أن نظريّة سانخونياتن الكونيّة الصوريّة، تقوم على أساس أقدم نظريّة للتكوين «الهرمسي»، مأخوذة من مدينة «خمنو» (هرموبولس). وهذه من أقدم مدن أعالي النيل، وقبل عصر السلالات. وفي تحديد زمن سانخونياتن يستند إلى تعبير استعمله هذا لوصف «تاوت» هو: «الأكثر حكمة تحت الشمس». ويرى أن هذا التعبير ظهر في الكتابات الصيدونيّة خلال القرن

الخامس قبل الميلاد، كما استعمله «أوربيدس» الإغريقي في الزمن ذاته.

كما هو يرى أنه لا يوجد أثر للتكرار في النص كما كانت الحالة في الألف الثاني قبل الميلاد. وهنا نلفت إلى أن النص منقول بالتلخيص بقلم أوزيب، ولا تعتمد هذه الحجّة.

والملاحظة الثانية عن النص يقولها الباحث الفرنسي «روبرت دوبويسّون» في كتابه «دراسات حول آلهة الفينيقيين في العهد الروماني» (ص ٣١-٣٥).

وهذا يرى أن فيلون الجبيلي كان يحاول التوفيق بين الأسماء الفينيقيّة واليونانيّة. ومعلوماته كان يجمعها ويربطها بمعابد كانت معروفة في زمنه، قرب جبيل.

كما يعتبر أن فيلون الجبيلي استعمل نصاً قديماً لسانخونياتن البيروتي، حيث ورد فيه أن «عليون وبيروت» ولدا الإنسان والسماء والأرض. وهذا القول ليس إسرائيلياً، أو أوغاريتياً، أو إغريقياً، وإنما هو كنعاني صافٍ، من مدينة بيروت. ومع هذا، هو يرى أن فيلون الجبيلي أدخل الكثير من عنده إلى النص.

أمّا أوزيب القيصري البامفيلي

وهكذا ورد اسمه ونسبته، فيرجّح أن اسمه الأصيل هو «حوشب». ولد سنة ٢٦٠م ولم يعرف أصله ومولده، وعرف بالبامفيلي نسبة للعالم بامفيليوس الفينيقي، الذي كان على صلة وثيقة به، في «قيصريّة» في فلسطين. وكان هذا العالم قد جمع مكتبة ضخمة، وضعها بتصرف أوزيب، فوجد فيها، على الأرجح، كتب فيلون الجبيلي أو في مكتبة أسقف القدس التي كانت ذات شأن أيضاً.

كان قد سُجن أثناء الاضطهاد الروماني في «قيصرية»، ولكنه لم يُعدم أو يُعذب مثل غيره. وقد اتهمه أسقف «هرقليا» بخروجه على الإيمان المسيحي لإنقاذ نفسه آنذاك.

عيِّن أسقفاً لقيصريّة وشارك في تدشين الكاتدرائية الأولى في صور

بخطاب تاريخي وصفها بدقّة فيه. كان قد نال حظوة لدى الإمبراطور المسيحي قسطنطين وحضر مجامع كنسية متعدّدة، برَّز خلالها بثقافته وحذقه.

غدا مؤرخاً للكنيسة وشهدائها الأُول. وردَّ على فرفوريوس مدافعاً عن المسيحيّة. كما كتب عدداً من الكتب، من بينها كتابه الذي ضمَّنه هذا النص الفينيقي، وهو «الاستعداد للحياة الإنجيليّة». وقد ترجمت كتبه إلى لغات مختلفة، نقلاً عن اليونانيّة. وبقي جانب كبير مما كتبه.

ذكر لفيلون الجبيلي تسعة كتب عن التاريخ الفينيقي وثلاثة عن تاريخ الإغريق وكتاباً عن الشعب اليهودي، اقتبس منه بعض الفقرات، ولكنها لم تصلنا جميعها.

فهل يكون الأسقف أوزيب قد أتلف هذه الكتب لمعارضتها الأفكار التي كان يبشر بها...؟!

إنه تساؤل لا بد منه، مع أننا نجلّ رجل ثقافة مثله عن القيام بهذا العمل، أو حتى الموافقة عليه. ولكن الكثير من معلوماته يشير إلى أنه كان من مجالات اهتمام فيلون الجبيلي الناقد للتاريخ.

وإن تكن عملية الإتلاف أو الحرق قد حدثت عمداً، فهي بلا شكّ حدثت بعد وفاة بامفيليوس أستاذه، الذي كان جمع هذه المؤلفات. كما بعد وفاة الفيلسوف فرفوريوس سنة ٣٠٤م، وهو كان مؤهلاً لكشف عمليات الاقتباس. وقد عاش أوزيب حتى سنة ٣٣٩م. وترك لنا كتاباً صغيراً عن أسماء الأمكنة الهامة الواردة في العهدين القديم والجديد مع كتاباته الهامة في تاريخ الكنيسة، وهي المرجع الأساسي لحوادث القرون الأولى.

درس الكثيرون من الباحثين نص فيلون الجبيلي، كما أورده أوزيب. وهذه الدراسة هي الأولى باللغة العربية. فلعل فيها بعض الإنارة له من أرض وقائعه. وهي توسيع لتلك التي نشرناها في دار النهار للنشر سنة ١٩٧٠، بعنوان «نظرية التكوين الفينيقيّة وآثارها في حضارة الإغريق». وقد نالت جائزة الشاعر الكبير سعيد عقل آنذاك.

يارون

١٩٩٨/٨/٢٦

القسم الأول

المدخل إلى نصوص سانخونياتن

كتب المؤرخ الكنسي الأقدم «أوزيب» في الجزء الأول من كتابه «التمهيد للحياة الإنجيليّة»(1)، فقال:

١٩- **«إن تعدُّد الآلهة، هذا الضلال الذي أخذت به جميع الشعوب، أبصر النور منذ قرون طويلة، حيث ولد لدى الفينيقيين والمصريين. ومن هؤلاء انتقل إلى شعوب أُخرى، حتى وصل إلى الإغريق أنفسهم. ويحمل التاريخ دلائل على ذلك منذ أقدم الأزمنة. وقد آن الأوان لإمعان النظر في ذلك، بادئين بالفينيقيين.»**

لقد كان هم المؤرخ أوزيب، وهو أسقف مسيحي، أن يدافع عن العقيدة اللاهوتية المسيحية ويتصدى لكلّ ما يخالفها أو يخاله يخالفها. وعلينا هنا، أن نعذره لموقفه من عقائد الفينيقيين لكونه لم يطّلع على ما أسهم به هؤلاء في تنقية فكرة التوحيد بالإله «إل»، فهو اعتمد النصوص العبرية الواردة في العهد القديم وحدها. وهذه كانت مناهضة غالباً للفينيقيين وأسلافهم الكنعانيين، ونحن نكتشف اليوم خلال النصوص التي وصلتنا أن التوحيد كان منتشراً بين الكنعانيين منذ الألف الثاني قبل الميلاد. ونكتفي هنا بذكر نص من مدينة شمأل في شمال سوريا، يعود للقرن الثامن قبل

الميلاد، وصف خلاله الإله «إل» بأنه: «خالق الأرض والشمس الخالدة والمجموعة الكاملة لأبناء الآلهة.»[٢]

لقد كان يكتب التاريخ لغاية عقائدية. ولهذا نحن نشكّ بأن يكون اختار النصوص المحايدة أو القيّمة من كتاب «فيلون الجبيلي»، لأن غايته كانت اختيار المعتقدات الركيكة لمناقشتها وإسقاطها، سواء كانت هذه المعتقدات خاصة بالتكوين أم بسلالة الأجداد المؤلهين. ولهذا وجب الحذر أمام أحكامه المسبقة؛ فهو يتابع:

٢٠- «إن سانخونياتن، الذي أورد هذه المفاهيم هو شخصية من العهد القديم، ويقال أنه أقدم من حرب «طروادة»، كما تشير إلى ذلك دلائل حقيقة تاريخه الفينيقي. وقد قام فيلون، وليس فيلون اليهودي، وإنما الجبيلي بترجمة هذه المخطوطة من اللغة الفينيقيّة إلى الإغريقيّة لنشرها.»

لا نستهين هنا بتعيين المؤرخ أوزيب لزمن سانخونياتن. فهو باحث مدقق ومؤرخ موثوق. واستعماله لحرب طروادة كمفصل تاريخي مشهور يشير إلى الثقافة الإغريقيّة العالميّة التي كانت منتشرة في زمنه. وفي الوقت ذاته تلفتنا هذه الإشارة إلى الازدهار الثقافي الذي كان يعم آنذاك أرض الكنعانيين والذي تشهد له ملاحم أوغاريت والأخبار التي سجلتها الإلياذة والأوديسيه أو السجلات الفرعونية عن التقدم الحضاري الذي كانت عليه مدن الفينيقيين في ذلك الزمن.

«وقد ذكر فرفوريوس، الذي يكتب افتراءات ضدنا، ذكر في كتابه الرابع الذي يهاجمنا فيه، عن هذا الرجل ما حرفيته:

٢١- إن سانخونياتن البيروتي يقص مع الحرص الكبير على الدقّة، ما يتعلق باليهود، حيث قوله يتوافق مع أسماء الأمكنة والأشخاص. وهو كان حصل على كتب «جيروم بعل»، كاهن الإله «ياو». وقدم تاريخه لملك بيروت «أبي بعل»، الذي تلقاه مع جماعة من الفاحصين للحقيقة. وزمن هؤلاء الأشخاص يقع قبل حرب طروادة، وهو قريب من زمن «موسى»، كما يظهر ذلك من سجلات تعاقب ملوك فينيقيا. وسانخونياتن الذي جمع وألف باللغة الفينيقيّة وبأمانة جميع التاريخ القديم، اعتمد على الكتب الشعبيّة وعلى حوليات المعابد، وهو عاش في زمن «سميراميس» ملكة أشور التي تذكر الحوليات أنها كانت تعيش قبل زمن حوادث الإلياذة، أو على الأقل في هذا الزمن. وقد تمت ترجمة عمل سانخونياتن إلى اللغة الإغريقيّة على يد فيلون الجبيلي.»

يكشف المؤرخ أوزيب هنا موقف الفيلسوف فرفوريوس الصوري من الدين المسيحي. ولكن النص الذي ينقله عنه يكشف لنا أن هذا المفكر كان باحثاً محققاً يعتمد أرقى أساليب البحث والتدقيق. وهو كان يحرص على ذكر الأسماء إلى جانب النصوص والأقوال التي يستعيرها من الآخرين، كما لاحظ ذلك «دودز» في موسوعة أكسفورد الكلاسيكيّة للأعلام. عاش فيلسوفنا بين ٢٣٢ و٣٠٥م. وقد كان يدرس الأديان وينقدها. ووفق هذا الاختصاص

لديه تكون لملاحظاته دلالة كبيرة، سواء حول النصوص أم حول تاريخها. وهو، كما رأينا، يشهد لمصداقية نصوص سانخونياتن بالنسبة للتاريخ الفينيقي. ويثبت وجود هذه الشخصية التي شكّ بوجودها عدد من الباحثين الحديثين.

ويكشف لنا نص فرفوريوس هنا أن سانخونياتن كان ضمّن كتابه تاريخاً لليهود يختلف عما ذكرته الكتابات العبريّة التي تبنتها المسيحيّة فيما بعد. ولهذا يصفه بالدقّة والالتزام بأسماء أمكنة وقائع هذا التاريخ وحوادثه. وهذا يعني أيضاً أن المؤرخ سانخونياتن عاش وكتب بعد زمن الوقائع الهامة لتاريخ العبريين، أي في الألف الأول قبل الميلاد، وليس قبله.

أمّا النصوص والروايات التي حصل عليها من كتابات الكاهن «جيروم بعل» فهي حكماً تعود للقرن الثالث عشر وما قبله قبل الميلاد، أي معاصرة لواقعتين تاريخيتين متقاربتين هما: حرب «طروادة» وزمن «موسى». وبهذا يكون تعيين فرفوريوس لهذا الزمن تعييناً صحيحاً. والقرينة التي تثبت ذلك هي وجود كاهن كنعاني للإله «ياو»، أي قبل تبني اليهود له واستئثارهم بعبادته، حيث نحن نقرأ في سفر الخروج أن موسى سأل الإله عن اسمه في جبل حوريب فأجابه: «... تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم.» (٣:١٥).

ونحن نجد تسمية «ياه» مألوفة في أرض لبنان وغير قابلة للّبس، وذلك بتسميات نسبية واضحة، مثل: كفريا ومجدليا؛ أي: بلدة ياه، وقلعة ياه. وقد وردت هذه اللاحقة اللاهوتيّة الكنعانيّة في تسميات قرى عديدة، مما يرجّح رأي بعض الباحثين من أن موسى

أخذ عقيدة «ياه» عن والد زوجته كاهن المديانيين. ومن هؤلاء الباحثين كان العالم الأمريكي «أولبرايت».[٣]

كما لاحظ الفرنسي «دي بويسون»، خلال استعراضه لرسائل آرامية في مصر تعود للعهد الفارسي، لاحظ وجود تسميات تعود للإله «ياه» في هذه الرسائل، دون وجود أية علاقة لها باليهود.[٤]

لا يوجد ذكر في التاريخ المعروف لبيروت لملك باسم «أبيبعل»، بينما هناك ملكان بهذا الاسم، أحدهما هو والد حيرام الأكبر ملك صور، وقد ذكره «جوزيفس» عن «مناندر» في كتابه «التاريخ القديم لليهود» (٨:٢). والثاني، هو ملك جبيل بعده بسنوات قليلة، كما يذكر الباحث «كونتنو» في جدول ملوك فينيقيا.

ولعل أهم ما يجب التوقف عنده في هذا النص، هو ذكر اللجنة الفاحصة التي ترأسها ملك بيروت لمناقشة ما كتبه الكاهن «جيروم بعل». فيمكننا اعتبار هذه اللجنة أقدم مجلس أكاديمي يناقش أطروحة ويتفحصها لإجازتها. وهكذا نجد شرف هذه الواقعة الحضارية الهامة ينسب لمدينة بيروت في الألف الثاني قبل الميلاد. وهو حدث تاريخي ثقافي، يستحق التنويه وتذكير العالم به.

الأمر الآخر الهام في النص هو خضوع إنتاج الكاهن للسلطة المدنية التي كان لها حق الحكم بين الخطأ والصواب.

وعندما يذكر فرفوريوس «سميراميس» كشخصية تاريخية، لا نجده يلجأ إلى أسطورة، كما يعتبر البعض هذه الشخصية. فقد

رأى المؤرخ الكلداني «إدي شير» في كتابه «تاريخ كلدو وأثور»، رأى أن سميراميس هي زوجة باني نينوى «تغلاتنيب» الذي عاش في أواسط القرن الثالث عشر قبل الميلاد. (١:٣، ١ و٢).

٢٢- **«تلك كانت تأكيدات فرفوريوس لأصالة هذا اللاهوتي ولقدمه. وهو ذاته وفي مجرى كتابته لا يحدثنا عن إله متعالٍ، ولا عن آلهة سماويين، وإنما عن فانين، عن رجال ونساء، وليس عن متمدنين يجب تقبلهم لفضيلة أخلاقية أو لتقليدهم في فلسفتهم، بل عن أشخاص مغمورين بالشر والفساد حتى النهاية. وهو يشهد بأن هؤلاء بالتحديد هم الذين يعتبرهم الجميع آلهة حتى في أيامنا هذه وفي المدن والأرياف. ولنا أن نأخذ هنا البرهان خلال الدراسة.»**

يتجه أوزيب بالنقد هنا إلى فرفوريوس، لعدم إيمان هذا الفيلسوف بالإله الواحد المتعالي؛ لكنه يعمِّم فيصفّه في صف الذين كانوا يؤلهون الأباطرة الرومان، وينشئون المعابد لهم في أنحاء الإمبراطورية استرضاءً لهم. وهذا ما لا نظنه ورد في كتاباته.

٢٣- **«بعد أن وزع فيلون الجبيلي مؤلف سانخونياتن في تسعة كتب بدأ في مدخل الكتاب الأول بأقوال عن سانخونياتن ذاته، فقال:**

٢٤- **إن الأشياء كائنة هكذا: سانخونياتن هو شخصية علمية جادة، وشديد الذكاء. كان يريد معرفة العالم وما حصل فيه منذ الأزل، منذ بدء الكون، فبذل كل جهوده لكشف عمل «طاوتس»، حيث كان يعرف أن بين جميع الذين عاشوا تحت الشمس كان طاوتس أول من اخترع الكتابة**

وشرع بكتابة الكتب، جاعلاً ذلك في أساس عمله. والمصريون يدعونه «ثووط»، بينما الإسكندرانيون يدعونه «ثوث». وقد ترجم الإغريق اسمه إلى «هرمس».»

يشير أوزيب هنا إلى وجود مؤلّف بين يديه من تسعة كتب، كان فيلون الجبيلي ترجمه عن اللغة الفينيقيّة. كما نعرف أن هذا المؤلّف كان في موضوع التاريخ، وكان يتضمن تاريخ اليهود، وفق أقوال فرفوريوس. وقد أخذ أوزيب مقدّمة الكتاب الأول لمناقشتها، لكونها تتضمن نظرية في التكوين وروايات عن سلالات الآلهة. وهذه أرادها موضوع مناقشته اللاهوتيّة، ليس بوصفها من وضع فيلون الجبيلي خلال العهد الروماني، كما شاءها البعض أن تكون، وإنما لكونها تعبر عن عقائد حضارة، كانت واسعة الانتشار وعميقة الجذور، كانت رواسبها لا تزال منتشرة في البلاد الكنعانيّة التي كان يعيش فيها.

وهنا نجد أهمية خاصة لقبول أوزيب النص كتراث كنعاني. ونعتقد أن ما لم يصلنا من مؤلف سانخونياتن هو الذي عيَّن له هويته؛ بالإضافة إلى تزكية الفيلسوف فرفوريوس له. ولو كان لديه أي شكّ، وهو الباحث المختص، لكان عمد إلى تجاهله والاتجاه إلى التراث الأسطوري اليوناني-الروماني في مناقشاته.

وما يعطي النص أهمية أكبر هو كونه الوحيد الذي وصلنا مكتوباً عن الفينيقيين خلال التراث الكلاسيكي، برغم وجود عدد من الإشارات إلى مؤلفات مكتوبة عن تاريخ هؤلاء، لم يصلنا منها سوى شذرات قليلة مع أسماء مؤلفيها، لدى المؤرخ اليهودي

جوزيفس فلافيوس؛ مثل: موخس وهستيكوس وجيروم المصري (٣:١)، ومناندر وديون (٢:٨ و٧). وذلك في «تاريخ اليهود»، كما هو يذكر لنا، أن مناندر كان كتب كتابه باللغة الفينيقيّة، وقد ترجم إلى الإغريقيّة (١٤:٩)؛ مما يعني أن هناك تراثاً أدبياً مفقوداً، ولم يكن كتاب سانخونياتن سوى جزء منه.

يطرح النص موضوع الحصول على المعرفة، فيصف سانخونياتن بأنه شديد الذكاء. ولكنه لا يجعل هذا الذكاء قادراً على كشف الأسرار ومعرفة المبادئ الطبيعيّة، بل يؤهله للإطلاع على أعمال الوسيط الإلهي الذي يتفرد بمعرفة هذه الأسرار والمبادئ. وهذا النهج كان عاماً في الحضارات الشرقية القديمة، وهو نهج الرسل والأنبياء الذين أوحي لهم ذلك. وكان طاوتس أحد هؤلاء الذين ينسب لهم العلم والمعرفة ليس في مصر وحدها، بل في البلاد الكنعانيّة وفي أرض العراق أيضاً. وقد ورد الاسم كأحد أسماء الإله «مردوخ» الخمسين في قصة الخلق البابليّة بلفظة «توتو»، حيث يوصف بأنه يخترع الرقى ويريح الآلهة. كما هو في مطلع شرائع حمورابي يذكر كإله للحكمة. كما ورد ذكره في نصوص إيبلا قبل ذلك بلفظ «طاووستا إيلم»، أي ملك الآلهة.(٥)

ونجد النص ذاته ينفي أن تكون هذه الشخصية مصريّة، حين يذكر اللفظ المصري، ثم الإسكندراني. وبهذا يكون حصره بالكنعانيين في معالجته. ولعله هو ذاته بلفظة «طاغوت» في اللغة العربية، التي ورثت الحضارة الكنعانيّة في معظم مفاهيمها في المنطقة. وقد كان من معبودات الجاهلية، وممن يحتكم له المتخاصمون، كما تذكر الآية: «ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم

آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً.» (النساء ٦٠).

ويستعمل الإغريق تسمية هرمس لطاووت، بينما يستعمل العرب تسمية إدريس. وقد أثنى القرآن عليه بهذا الاسم: «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً.» (سورة مريم ٥٦ و٥٧). وفي قصص الأنبياء لابن كثير أنه هو «أخنوخ» ذاته، وهو في عمود نسب النبي. هو أول من خط بالقلم، هذا الإبداع الذي تلتقي فيه جميع الأسماء التي ذكرنا. ولإدريس النبي مزار في بلدة الغازية قرب مدينة صيدا على الشاطئ اللبناني. واسمه لا يزال حياً لدى صابئة العراق، بتسمية لها حرمة كبيرة، هي «طاووس ملك»، أي مع الصفة ذاتها التي كانت له في «إيبلا» قبل أكثر من أربعة آلاف عام.

٢٥- «وبعد هذه الأقوال يتناول رجال الأجيال التي تلت هذه الحوادث ويلومهم لكونهم بالقوة والحيلة حرّفوا هذه الروايات المتعلقة بالآلهة نحو استعارات وأوصاف ونظريات طبيعية. ثم يضيف بعد ذلك:»

خلال هذا التلخيص لأوزيب نعرف أنه كان يقرأ نسخة مطولة من ترجمة كتاب سانخونياتن؛ وكان يختار منها ما يناسب تعليقاته فقط.

٢٦- «لقد رفض اللاهوتيون الأحدث هذه التي قيلت عن الأصول

الأولى واخترعوا استعارات وأساطير مبتكرين خرافات تتفق مع الظواهر الكونيّة. وقد أدخلوا إليها الكثير من الغموض، بحيث لم يبق من السهل معرفة ما حدث في الواقع. ولكن، هو، برجوعه إلى الكتابات السرّية التي اكتشفها في معابد العمونيين، حيث كانت محفوظة، حصل على معرفة لم تكن متوفرة للجميع. وعندما تمّ له ذلك، أكمل خطته بإقصاء أسطورة الأصول والاستعارات. وبعد ذلك أراد الكهنة الذين جاءوا بعده أن يخفوا من جديد هذه المعرفة ويدرجوها في أسطورة. ومنذئذ وجدنا الغوامض التي لم تكن موجودة لدى الإغريق بدأت بالظهور لديهم.»

يشير فيلون الجبيلي هنا إلى تعدّد فلسفات الخلق والتكوين، وابتعاد هذه الفلسفات عن المفهوم الكنعاني الذي سجله سانخونياتن. كما هو ينتقد هذه الفلسفات لكونها غامضة وتقوم على روايات خرافية لتفسير الظواهر الكونيّة. هذا ما عناه بكلمة استعارات. أمّا سانخونياتن، فهو، حسب النص، اعتمد على كتابات في أصل الأشياء كانت وقفاً على طبقة من الكهنة لدى العمونيين الذين كانوا يعيشون في شرق الأردن. وعند العودة إلى النصوص العبرية عن هؤلاء، نجدهم كانوا ذوي حضارة ودين متقدمين. وكان «شمش» الإله الأعظم لديهم ويدعونه أحياناً «مولك»، أي الملك (قضاة ١١:٢٤ وملوك أول ١١:٥ و٣٣ وملوك ثان ٢٣:١٣). وكان المؤرخ الإغريقي هيرودت أشار إلى أن لغة العمونيين مختلفة عن لغة إثيوبيا ولغة مصر (٢:٤٣)؛ بينما الأبحاث التي حدثت حتى الآن في منطقة «عمان»، لا توحي بأن

حضارة هؤلاء ترقى إلى أبعد من القرن الثالث عشر ق.م هناك. وربما كانوا في منطقة أُخرى لا تزال مجهولة.

كما يشير فيلون في هذا النص إلى أن المؤرخ سانخونياتن كان ناقداً واقعياً، نقّى النصوص التي حصل عليها مما فيها من عناصر غير منطقية. وكان عمله هذا قبل بروز الإغريق الذين عادوا إلى إغراق هذه الأصول بالغوامض والخرافات، كما يقول.

٢٧- «ويتابع بعد ذلك:

ذلك هو ما اكتشفناه خلال بحثنا بحماسة عن المعرفة لتاريخ فينيقيا، بعد أن اصطفينا مستندات هامة لم نأخذها عن الإغريق، لكون ما لدى هؤلاء مليء بالتناقضات. وهو موضوع من بعضهم بروح الجدال أكثر مما هو بحث عن الحقيقة.»

يذكر فيلون الجبيلي هنا الغاية من عمله الأدبي، حيث يرينا أنه كان يعمل بجد لإحياء تراث بلاده، باحثاً عن المصادر الأساسية لهذا التراث، خارج التراث الإغريقي الذي كان منتشراً في ذلك الزمن.

ونجد جرأة كبرى في كتابة ابن جبيل، لمجرد تعرضه لنقد الفكر الإغريقي، لأن هذا التعرض يتطلب ثقافة واسعة تسانده. أمّا نقده روح الجدال لديهم، فهو، كان على الأرجح، يستهدف الفلسفة السوفسطائية التي كانت تعلم هذا النهج الوصولي دون الاهتمام بالحق والحقيقة؛ حيث كان شعارها: «الإنسان هو مقياس الأشياء»؛ أي: لا ثوابت للقياس غير مصالحه.

٢٨- «وبعد ملاحظات أخرى:
لقد وصلت إلى الاقتناع إلى أنه كان جيداً ما كتبه هذا المؤلف بسرد التناقضات التي تسود لدى الإغريق، هذه التي كانت موضوعاً لثلاثة كتب، كرّست جهودي لها بعنوان «تاريخ عجيب».»

لا يكتفي هنا فيلون الجبيلي بتبني ما كتبه سانخونياتن من أفكار ونظريات، بل هو يرينا أنه ناقد حضاري متميز، وله ثلاثة مؤلفات في نقد الفكر الإغريقي. وهكذا لا يكون مترجماً وحسب، بل مرجعاً موثوقاً لما يكتب عنه. ويكون عدم وصول كتبه إلينا خسارة تراثيّة هامة، إلى جانب خسارة نصوص سانخونياتن التي ترجمها.

٢٩- «وبعد حجج أخرى يضيف:
إنه من الضروري الإيضاح سلفاً لكل ما تلا ذلك، ومن أجل جلاء عرض مفصّل لما عليه البرابرة الأكثر قدماً، وبوجه أخص الفينيقيون والمصريون الذين تلقت منهم بقية الإنسانية هذا المفهوم، وهو اعتبارهم أن الآلهة الأكبر هم الرجال الذين قاموا باكتشافات مفيدة للوجود، أو أنهم قدموا خدمات للشعوب في بعض المجالات. فقد رأوا فيهم محسنين ومصدر خير كثير، فأقاموا لهم معابد كالآلهة بعد موتهم وعبدوهم فيها، وأنشأوا لهم أنصاباً ومسلات دعوها بأسمائهم، بحيث يؤدون تعبّداً لهذه الأشياء، كما أن الفينيقيين كرّسوا لهم أكبر أعيادهم. وبنوع خاص عينوا

لهم عناصر كونيّة اعتقدوها آلهة وأطلقوا عليها أسماء ملوكهم ذاتهم. فهم لم يعترفوا بآلهة إلاّ بآلهة الطبيعة: الشمس والقمر والكواكب الأخرى والعناصر وما يتعلق بها، وهكذا كان لديهم آلهة خالدون وآلهة فانون.»

إن التعبير بكلمة «برابرة» لا يعني ما نفهمه منها اليوم، لأن المقصود هنا هو كل ما هو غير يوناني من الحضارات. وكان الفينيقيون والمصريون أشهر الشعوب القديمة المعروفة بالحضارة لدى الإغريق. ولم يخطئ فيلون عندما يشمل الشعبين ويعاملهما كفريق موحد مقابل للإغريق. فكشوفات الآثار الحديثة للنصوص الفرعونية ترينا أن معظم آلهة الفينيقيين الذين لهم قرى ومزارات في أرض لبنان كانوا يعبدون بكل احترام في مصر، وبوجه خاص في مدينة «ممفيس» العاصمة الأشهر في تاريخ مصر القديمة. ومن هؤلاء: شيت، رشف، بعل، صافي، صفد، قدش، عناة، بيرتا، نبطي وغيرهم.

يرينا أنهم تعبّدوا لعناصر فاعلة في الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب والرياح. وهذه لم تكن عبادة وثنية لكونها ليست من صنع الإنسان، كما توحي بذلك كلمة «وثن»، بينما الذين قدسوا ذكرهم وعبدوهم من أجل أعمال خيرة حققوها هم موجودون في كل أُمة وعصر، وتنصب لهم التماثيل وتقام لهم الأعياد للذكرى، وتسمى بأسمائهم الساحات والشوارع في العواصم الحديثة. ولم يكن تكريم القدماء لهؤلاء المحسنين من غير هذا النوع من التكريم. أمّا التأليه فقد كان مختلفاً عما نفهمه اليوم، ولم يكن سوى «أل» التعريف التي تلحق الأسماء لإبراز هويتها، وهذه هي

من الذهنيّة اللغويّة ذاتها، قبل انتشار فكرة التوحيد للّه (أَل أَل).

ونجد صدى هذه العقيدة الكنعانيّة في المزمور ٨٢ عند القول: «أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون.» (٨٢:٦ و٧).

«وبعد أن يقوم فيلون الجبيلي بهذه الإيضاحات في مدخله ينتقل مباشرة إلى ترجمة سانخونياتن عارضاً العقائد اللاهوتية الفينيقية بالطريقة التالية:»

القسم الثاني

خلاصة لاهوت الفينيقيين القدماء

عن مؤلفين كتبوها،
ومن الصواب أن نحتقرها...

أوزيب

١- «هو يفترض في أصل الكون ريحاً كثيفة عاصفة، أو عصفة هواء كثيف، مع خواء موحل مظلم. هذه العناصر كانت دون نهايات وبقيت دون حدود، خلال زمن طويل. لكن، وحسب قوله، لما هذه الريح وقعت في حب مبادئها الخاصة نتج عن ذلك مزيج، فدعي هذا المزيج الرغبة (بوثوس). ذلك هو مبدأ خلق جميع الأشياء. ولكن هي ذاتها لم تكن تعرف خلقها الخاص. ومن الاندماج لعصفة الهواء مع ذاتها ولد «موت».

٢- إنه، حسب رأي البعض، العجينة؛ وحسب رأي الآخرين التخمر لخليط من الهلام. من ذلك نتجت كل بذرة للخلق وتكوين الكون. كانت هناك حيوانات محرومة من المشاعر ولدت منها كائنات متميزة بالعقل دعيت «شوف سمين»، أي المتأملة في السماء. كانت أشكالها مصنوعة بشكل بيضة، ونفث فيها «موت» نيرانه. وكذلك هي الشمس والقمر والكواكب والنجوم الكبرى.»

إننا نستغرب الإهمال الذي لقيته هذه النظرية التكوينيّة من المعنيين بفكرة التكوين، خلال منطق العلم الحديث. فأي من الباحثين المعاصرين لم يشر إلى نظرية المؤرخ سانخونياتن. ولعلنا، حين استعراض مبادئها نجدها الأقرب إلى افتراضات العلم المعاصر في ما يخص تطور الأرض ونشوء الحياة عليها. فالريح المعتمة والخواء المشوش الموحل هما ما افترضهما العلم المعاصر لجو الأرض، وهي آخذة بالبرودة، قبل استقرار المحيطات. وهذا حدس فكري يستحق الإعجاب لما فيه من منطق وابتعاد عن الخوارق والخرافات.

لقد بقي العلم حتى عهد الفيلسوف «كانط» لا يملك الجرأة على أمثال هذه الفرضية الفيزيائية للتكوين. فهذا الفيلسوف المبدع وحده افترض ما أخذ به العلماء بعده، وهو قوله: كانت هناك غيمة ضخمة مدوِّمة من الغبار والغاز. وقد تطورت ملاحظات العلماء فقالوا بفكرة السديم بين الكواكب، أي الغيوم المادية الكثيفة التي تحتوي المواد اللازمة لنشوء الحياة والتي تتحرك بفعل رياح نجميّة. وقد افترض العالم الفرنسي «لابلاس» دوران الغيمة على نفسها كسبب لتقلصها وتكثفها لتصبح جامدة. وكانت أمثال هذه النظريات في أساس نظريات التكوين المادية المعاصرة. وهي جميعاً تتفق مع مبادئ نظرية سانخونياتن في التكوين.

إننا نجد معالم هذه النظرية عن الظلام والخواء في النظرية الأورفية، كما نجدها لدى أوفيد، لكن ليس بالتجريد الذي سجله سانخونياتن. كما أن افتراض الزمن المديد واللاحدود يجعلها أكثر منطقية من نظرية التكوين التي سجلها العبريون والتي تفترض أن

الأرض كانت جاهزة للحياة، وقد تمّ التكوين خلال أيام معدودة.

ولا بد من الإشارة إلى أن نظرية التكوين البابلية وحدها «لما في الأعالي» تقترب من هذه في جوهرها، بينما هي ترتبط حكماً بأرض الرافدين وفيضان الأنهار فيها. والتقاؤها مع نظرية سانخونياتن إنما هو التقاء منهج فكري واقعي مستنير، إذ هما تعتبران الأرض كانت عماءً مادياً مختلطاً، عبرت عنه نظرية أرض الرافدين، بعدم تميّز الكائنات بأسماء تعيّنها. وأنه كان في البدء مياه مختلطة معاً كجسم واحد، وأن الآلهة، أي أنظمة الموجودات، تكونت داخل المزيج المختلط.

وفي العودة إلى النظرية الكنعانيّة لدى سانخونياتن نجدها تستعمل أشياء، مثل الخليط والهلام والبيضة والاندماج الذاتي والنار. وهذه الأشياء ذاتها يفترضها منطق العلم الحديث في أصل الكون وتطور تكوين الأرض وتحولها إلى قابلية الحياة.

وقد نستغرب ورود ذِكر «موت» في مجال التكوين، مما حمل الباحث الفرنسي «لاغرانج» إلى اعتبار الاسم مأخوذاً من الفرعونيّة، وهو يعني «الأم» ويستخدم كاسم لـ «إيزيس».[٦] لكن المطلع على شخصية «موت» كإله في نصوص أوغاريت يجد أنه يتعادل بسطوته مع البعل، إله الحياة والنشاط، وهو يعبّر عن قوة من قوى الطبيعة الناشطة ومن هذه القوى الحرارة التي تقضي على الأعشاب وتنضج الحصاد.

ولعل واضع هذه النظرية عن الإله موت، كإله للخلق لاحظ ولادة الحياة في الموت والعفن والدود في الجثث والثمار المهترئة.

والملاحظة التي يجب التوقف عندها هي أن المؤلف لم يقفز إلى الكائنات العاقلة، بل وصل إليها بالتدرج خلال حيوانات بدون مشاعر كما يقول، أي كائنات عضوية نشأت قبل الكائنات المتنقلة.

* * *

لقد كان من حق بعض الباحثين أن يشكّوا بوجود سانخونياتن وينسبوا لفيلون الجبيلي وحده مثل هذا العمل المتقدم، كحصيلة طبيعية للتطور المنطقي من جهة، ولانتشار أساطير الحضارة الإغريقيّة في زمنه. ولكن بروز «طاليس» كأقدم مفكر في العلوم الطبيعية لدى الإغريق، وقوله أن الليل سابق للنهار، وأن الماء هو أصل الأشياء جميعاً؛ ولكون هذا المفكر المبدع فينيقي الأصل، كما يذكر المؤرخ هيرودت (١:١٧١) وغيره، فإننا نفترض وجود دائرة فكرية متقدّمة في البلاد الفينيقيّة، لا يبتعد زمن وجودها كثيراً عن زمن وجود الفيلسوف طاليس في القرن السادس قبل الميلاد.

وعند ذِكر الرغبة، في مجال الحديث عن تفاعل الطبيعة بقواها الداخلية، علينا التذكير بأن الفيلسوف الإغريقي «أمبدوكل» استعمل هذه الاستعارة لقوى الطبيعة عندما حدد عملها بالحب والكره، وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد. ونحن نعرف هذه القوى بالجذب والطرد، وفي مجال الذرة بوجه خاص.

كما لا بد من الإشارة إلى أن التعبير «بدون نهاية» و«بلا حدود» كان ولا يزال ذا أهمية خاصة في المفهوم الكوني. وهو ذاته الذي أدى بالمفكر العلمي «جيوردانو برونو» إلى محرقة مجلس التفتيش سنة ١٦٠٠م.

ونجد نظرية سانخونياتن تتقارب مع نظرية الشاعر «هزيود» الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. وهذا كان اعتبر «الخواء» سابقاً لظهور الأرض، كما هذا الخواء هو الذي أولد الليل، والليل أولد النهار، والأرض حملت بالسماء ذات النجوم، لتكون غطاء لها ومركز استراحة للآلهة. (مولد الآلهة ١٢٠-١٢٥).

وعند البحث عن اجتهادات الفكر الكنعاني في مجال التكوين نجده فكراً ريادياً، إذ نقرأ لدى داماشيوس، نقلاً عن «أوديم» الروديسي، في القرن الرابع قبل الميلاد:

«إن الصيدونيين، بحسب المؤلف ذاته، يفترضون، قبل كل الأشياء، وجود كرونوس والرغبة والضباب (أوميكليه). ومن اجتماع الرغبة والضباب، وهما يعتبران مبدأين، يفترضون ولادة الهواء والريح، بمفهوم أن الهواء يمثل المستوى الأعلى للوعي، والريح، بوجودها المتحرك بجانب الهواء هي النموذج الحي للوعي. ومن هذين الأخيرين يقولون، ولدت بدورها البيضة، التي تمثل، كما أظن، العقل الواعي.»

«وبعيداً عن أوديم، نجد ميثولوجيا الفينيقيين بحسب موخس: في البدء وجد الأثير والهواء. ومن هذين المبدأين ولد «علومس»، الإله العاقل، قمة العقل بذاتها كما أظن، ويقولون أنه باجتماع هذا مع ذاته ولد في البدء «خوزورس» الفتاح، ثم البيضة هذه التي تعبّر كما أظن عن العقل الواعي وبواسطة الفتاح خوزورس، القوة الواعية من حيث أن هذه هي الأولى للتمييز في الطبيعة الغاشمة، إلاّ أنه وفجأة بعد المبدأين غدت الريح الوحيدة هي القمة وذلك خلال وساطة الريحين «ليبس» و«نوتس» (وبالنتيجة فإن الفينيقيين يضعون، بطريقة ما، هذين الأخيرين قبل علومس).

«أمّا «علومس» فهو العقل الواعي ذاته، ومن ثم فإن الفتاح خوزورس هو النظام الأول بعد الوعي. وأخيراً فإن البيضة هي السماء، لأنه يقال أن البيضة في انقسامها إلى قسمين ولدت السماء والأرض وهما نصفان لها.»(٧)

النص مضطرب لدى داماشيوس، بسبب النقل والترجمة؛ حيث نفترض أنه نقله عن لغة أُخرى غير الفينيقيّة في القرن الخامس للميلاد. ولكن برغم هذا الاضطراب وتدخل المترجم الذي كان يتدخل ملخصاً وفق قوله: «يقولون ويقال»، برغم ذلك، نجده يلتقي مع نص سانخونياتن في أكثر من مجال، وهو معه ينتميان إلى منهج فكري واحد، هو المنهج المادي لتفسير وجود الكون. وأهم ما يظهر في هذا المنهج، هو التأكيد على التفاعل الذاتي للمادة، أو الحب الذاتي ونشوء الرغبة. ويماثل «موت» لدى سانخونياتن «خوزورس»، الفتاح لدى «موخس». كما تلتقي النظريتان في تخيّل البيضة كأصل للوجود. وهكذا نجد فكرة البيضة كقاعدة أساسية للوجود في الفكر الكنعاني عن التكوين. ولعل تقليد بيضة الفصح ذاته لا يزال في الممارسة مع هذا العيد منذ فصح الكنعانيين الذي يعني ولادة الربيع من جديد كل سنة.

وعند تعريف «علومس» بأنه العقل الواعي فلا يخرج النص عن توضيح كلمة علوم وعلم التي نستعملها في العربية، وهي على ما يبدو كنعانيّة قديمة.

ونجد الفتاح خوزورس بتعريف النظام الأول، هو ذاته لدى سانخونياتن مؤلف النبوءات والسحر والرقى (١:١٠، ١١). وهو ذاته بلفظ «كوشر» في نصوص أوغاريت؛ حيث دعي من مصر لبناء بيت للبعل. وأهم صفة مرادفة له هي كلمة «فتاح» التي تربطه مباشرة بالإله الفرعوني «بتاح» المبدع. وتحت هذا الاسم الأخير عرفه الفينيقيون، وكانوا يضعون تمثاله على مقدّمة سفنهم تيمناً به، تحت اسم «بتاخي»، كما يذكر المؤرخ هيرودت (٣:٣٧).

وتمثاله هو ذاته تمثال الإله الإغريقي «هيفستس» الذي هو تسمية أُخرى لهذا الإله. ونحن نُرجّح أن لفظة «فتاح» كانت أصيلة في لغة النص قبل وضعه باليونانية.

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن موخوس هذا، صاحب النص، هو ذاته الشخصية الفينيقيّة الذي نسب له سترابو الإغريقي القول بالذرَّة كأساس للكون، وبأنه عاش قبل زمن طروادة (١٦:٢، ٢٤). كما ذكره ديوجين اللايرسي، في مطلع كتابه، بأنه كان في أساس نشوء الفلسفة خارج بلاد اليونان. وهو أخطأ باسمه، فكتبه «أوخس»، والاسم الأساسي لهذا الكنعاني الصيدوني هو «ميخا»، أو «ماغي»، كما يرى أولبرايت.[٨]

وما نقصده هنا، من عرض نظريات التكوين لدى الفينيقيين، هو أن هذا الهاجس نحو التكوين لم يكن طارئاً أو مستورداً لديهم، بل كان في أساس فكرهم التأملي. وهذا يعني لنا تاريخياً الشعور بالريادة في العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة، هذا الشعور الذي يتطلب ثقافة واسعة وجرأة في التفكير وإعطاء النظريات، وعدم الشعور بالنقص تجاه أي شعب آخر.

وتأتينا شهادة على أصالة التفكير الفينيقي في هذا المجال من المؤرخ الإغريقي «بوزانياس». فهذا المؤرخ التقى بأحد أبناء صيدون في مقام لأسكلابيوس (أشمون) في أرض «إيجيون» من بلاد الإغريق. فكتب عن ذلك يقول في القرن الثاني للميلاد:

«في هذا المقام تجادلت مع رجل من صيدون أعلن أن الفينيقيين يعرفون عن الدين أكثر مما يعرف الاغريق، وليس في العموميات فقط، وإنما من حيث هم يعتقدون أن «أبولو» هو والد «اسكلابيوس». وهو ليس

له أم عادية من الناس، لأن اسكلابيوس هو الهواء الجيد والصحي للكائنات الإنسانية ولجميع المخلوقات الحيَّة. وأبولو هو الشمس التي تدعى بوضوع والد اسكلابيوس، ما دامت الشمس هي التي تعطي الفصول آونتها المتعادلة، والهواء خواصه الصحية. فقلت له: إني أقبل ما يقوله. ولكن ذلك لم يبقَ فينيقيا أكثرمما هو إغريقي» (٧:٢٣، ٦).

إن هذا الفكر التحليلي الواقعي لا يكون إلاّ نتاج ثقافة جماعية عميقة الجذور في نفوس الناس. ونجد في رد بوزانياس الإغريقي على الصيدوني اعترافاً بإنسانية هذا الفكر ودفاعاً ضمنياً عن الثقافة الإغريقية، دون نفي للأسبقية الصيدونية في المجال الواقعي. وهو كان محقاً بقوله أن التراث الفينيقي غدا إغريقياً. ففي القرن الثاني للميلاد، عصر بوزانياس، كانت المدن الفينيقية غدت عالمية الوجه والهوية بعد سقوط قرطاجة، آخر حصن للثقافة المتميزة عن الهلينستية في المنطقة.

لقد كان غياب النصوص المكتوبة من هذا التراث دافعاً لكثيرين من الباحثين إلى الشك بأصالة سانخونياتن وهويته. وتوسع البعض في تحليلاته فاعتبر النص المنسوب له من وضع فيلون الجبيلي ذاته، وهو جمعه من الكتابات الإغريقية، ونسبه لشخصية فينيقية وهمية للترويج له. لكن اكتشاف أساطير أوغاريت باللغة الكنعانية أعاد الاعتبار للنص وأثبت أنه من تراث واسع متطور وسابق للإغريق.

وكان أبرز من عالج هذا الموضوع الباحث الأمريكي وليام أولبرايت. فهو رأى أن فيلون الجبيلي نقل بأمانة عن الفينيقية نصوص سانخونياتن. وما يثبت معرفة اللغة الفينيقية في زمن المترجم هو وجود نقود تحمل هذه اللغة في القرن الثالث للميلاد.

ويبدو أن نظرية «موخس» تم تسجيلها في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، بينما نظرية سانخونياتن في القرن السادس قبل الميلاد. ولكنهما معاً كانتا في التداول قبل هذين التاريخين. وهو رأى أن التوحيد بين كوشر وفتاح في نص موخوس قد يعود لعصر الأهرام. وتكشف ملحمة أقهات ابن دانيال الأوغاريتية الوحدة بين هاتين الشخصيتين[٩]. ويوصف كوشر في هذه الملحمة بأنه إله مصر كلها (٢١:٥ و٣١). ويكرم «بطاّح» في منطقة النبطية، كما له مسجد باسمه في صيدا. كما هناك قرية في المنطقة باسم «كوثرية»، لعلها نسبة لهذه الشخصية الأسطورية، كوثر أو خوزر.

وهنا، لا بد من ملاحظة خاصة على اللغة الفينيقية لنظرية سانخونياتن. فقد احتفظت الترجمة اليونانية بلفظة «شوف سمين» كصفة للإنسان الأول، مع شرحها بمعنى المتأمل في السماء. وهذه الصفة نجدها للإنسان فقط في قصة تكوينه لدى «أوفيد» في كتابه «التحولات» (٨٠:١)، وهذا يعني لنا أن هذا التعريف للإنسان كان معروفاً قبل ترجمة فيلون الجبيلي بأكثر من خمسين سنة، وهو الزمن الفاصل بين المؤلفين. ومن المستبعد أن يكون الجبيلي حشر التعبير الفينيقي «شوف سمين» في نصه اليوناني، لو أنه أخذ الصفة عن أوفيد. بينما أوفيد ذاته نفترض أنه أطلع على نظرية التكوين هذه مع غيرها من النظريات المعروفة في زمنه، وفي لغاتها المختلفة، كما يستنتج ذلك قارئ النظرية التي يصفها في مطلع «تحولاته». وهو افترض الخواء، أي الخليط المشوش الثقيل وغير المتجانس في أصل الكون. ولم تكن الأرض معلقة، تسبح في الهواء متوازنة بثقالتها الخاصة، كما كان الماء على الأرض مختلطاً بالبحر، حيث لم يكن هناك وجود مستقل لليابسة أو وجود سائل

للبحر. كما لم يكن نور في الهواء ولم يكن لأي شيء شكل خاص. وكانت المبادئ تتصارع متعارضة الواحد ضد الآخر.

ومن ثم مع تقدم الطبيعة قام أحد الآلهة بوضع حد لهذه الفوضى ففصل الأرض عن السماء، والماء عن اليابسة والهواء الثقيل عن الأثير السائل (١:١-٢٤).

وفي تاريخ سابق قليلاً نقرأ للفيلسوف الشاعر «لوكريس» الروماني نظرية مماثلة بنهجها المادي. وذلك في القرن الأول قبل الميلاد؛ وهي تقول:

«لما خرج العالم من الخواء لم تكن ظواهره الأولى سوى أجرام لا شكل لها. ومن ثم اجتمعت العناصر المتشابهة معاً، وظهر العالم على حافة الفراغ. افترقت الأجزاء المختلفة التي تكونه عن بعضها وانتظمت في ترتيب خاص، فجمعت إلى كتلاتها العناصر المتنوعة التي توافقها.»

«وفي البدء، تجمعت عناصر الأرض الأكثر ثقلاً وكثافة في مركز واحد، شاغلة المناطق السفلى. وقد كان اجتماع هذه الأجزاء الكثيفة في حيِّز ضيق، ففاضت عنه في موجات كبرى المادة الخاصة لتكوين البحر، والنجوم والشمس والقمر، كذلك القبة اللامتناهية للعالم.»[١٠]

ووفق هذا النهج المادي للتكوين أعطى «بليني» الأكبر أفكاره للثقافة الرومانية. وجميعهم كانوا في أزمنة قريبة من زمن فيلون الجبيلي، مترجم سانخونياتن، ولم يعيِّن هؤلاء إلهاً معيناً للخلق، بل إن «أوفيد» يقول: «أحد الآلهة»، بينما يذكر

«لوكريس» مجموعة آلهة لتنظيم عمل الطبيعة، في غير هذا النص، تماماً كما يتحدث رجال العلم اليوم عن مجموعة قوانين. وأمام هذه الأفكار التي كانت واسعة الانتشار في الدولة الرومانية لما لأصحابها من شهرة لا نجد «أوزيب» يوجه النقد والاتهام بالإلحاد إلاّ لأفكار ابن بلاده سانخونياتن، حيث يقول:

٣- **«تلك هي، على التقريب، نظرية التكوين لديهم، وهي دليل واضح على الإلحاد. ولننظر بعد ذلك كيف، حسب رأيه أيضاً، حدث توالد الحيوانات.»**

لقد كان «أوزيب» مخلصاً لمسؤولياته الرعائية كأسقف مسيحي لمدينة «قيصرية». ولهذا كانت مسؤوليته تقضي بمقاومة كل ما يخالف النظرية المسيحية للكون والخلق. ويبدو أن أفكار سانخونياتن عن هذا الموضوع، كانت منتشرة في منطقة مسؤولياته مع تزكية فرفوريوس ابن مدينة صور لها. ولهذا اختارها لمناقشتها دون غيرها من أفكار العهد الروماني عن التكوين، وذلك إن لم يكن لنفوذها فلنفوذ أفكار فرفوريوس التي كانت تعارض التعاليم المسيحية. ويبدو أن هذا التعارض بين سانخونياتن والمسيحية هو الذي أدى إلى ضياع كتاباته، وربما إلى حرقها، كما حدث لمؤلفات فرفوريوس سنة ٤٤٨م، خلال عملية تطهير فكري.

٤- **«وعندما غدا الهواء ملتهباً حركت النار فوق اليابسة والبحر الرياح والغيوم وزخات غامرة من مياه السماء. وبفعل حرارة الشمس افترقت العناصر عن بعضها وابتعدت عن أمكنتها الخاصة، ثم عادت من جديد متصادمة في الهواء**

ببعضها، بحيث تحدث الرعود والبروق. وعلى قصف الرعد استيقظت الحيوانات العاقلة، التي تحدث عنها، مذعورة من الضجيج. وأخذت الذكور والإناث تتنقّل فوق اليابسة وفي البحر.»

يتفق هذا الوصف بوجه تام مع الوصف الذي يضعه معظم العلماء المعاصرين لحركة برودة الأرض واستقرار المياه في فجوات المحيطات والبحار وظهور اليابسة والحيوانات عليها. كما يتفق ظهور الحياة العاقلة مع فكرة الصدمة والشحنة الكهربائية التي تحدث التغيير في المادة. كما يتفق حدوث الأمطار الكثيفة ومداومة الرعود والبروق مع فكرة العلم الحديث عن الحرارة المرتفعة والبخار الكثيف لمياه المحيطات قبل أن تبرد وتأخذ مكانها.

وهذا النص يتضمن فلسفة كاملة لنشوء الحياة بفعل الصدمة التي يسميها ذعراً وضجيجاً. وكي نعرف قيمة هذه الفكرة للفلسفة المادية، نذكر ما نقله «أرسطو» عن الفيلسوف المادي ديمقريطس، في كتابه «النفس». فهو نسب إلى هذا الفيلسوف قوله: «إن النفس نوع من النار والحرارة. فالأشكال أو الذرات التي يقول بها لامتناهية، ويسمي ذلك الشكل الكروي ناراً ونفساً. وهذه قد تشبه ما نسميه غبار الهواء الذي يبدو في أشعة الشمس النافذة من خلال النوافذ، وتجمُّع هذه البذور يكوِّن، فيما يذهب إليه، عناصر الطبيعة بأسرها.» (٤٠٤).

كما نسب له في كتابه «الطبيعيات» قوله: «هناك من يقول إن الوجودات السماوية وجميع الأكوان وجدت تلقائياً وأن

العواصف والحركات التي تفصل العناصر عن بعضها وتجعلها في نظام كوني هي تلقائية أيضاً.» (٢:١٩٦-أ).

وهنا نجدنا أمام نهج علمي شامل يجمع بين نظريات موخوس الصيدوني وسانخونياتن البيروتي وديمقريطس ولوكيبس وطالس قبلهما في بلاد الإغريق. وقد كان السبق في هذا النهج لموخوس الصيدوني وفق التاريخ. وهذا ما سجله له سترابو الإغريقي، وهو أنه كان أول من قال بالتكوين الذري للعالم. وهو نقل الرواية هذه عن الفيلسوف الأفامي بوزيدونيوس كما يقول. (٢:١٦، ٢٤).

برغم إيجاز هذا النص، فإنه ينم عن ملاحظة دقيقة لحركات الطبيعة. إذ هو يلاحظ فعل الحرارة في فصل العناصر وتبخير المياه ونشوء الغيوم والبروق والرعود، بفعل الصدام. ولو كانت الكهرباء معروفة باسم في زمنه، لقال بتفريغ شحناتها في المواد الطبيعية لتحويلها إلى عضوية، أو في المواد العضوية لتغيير تفاعلها وتحولها إلى الحياة، كما يفترض ذلك بعض الخيال العلمي المعاصر.

وهكذا يكون سانخونياتن أول من اكتشف بأن البرق والرعد هما نتيجة اصطدام للمادة في الجو وليساصوت البعل أو إنليل أو زوس أو جوبيتر.

٥- «هكذا هي تقريباً لديهم ولادة الحيوانات حيث يضيف المؤلف ذاته:

ذلك هو ما وجد مكتوباً في قصة التكوين لدى «طاووتو» وشروحه المعتمدة على الحدس والبراهين التي لمحها بذكائه، فكشفها وأعلنها لنا.»

ينسب النص هذه الأفكار عن التكوين لإله الحكمة «طاووتو». ويرى أولبرايت أن اللفظ للاسم «طاووتو» على هذا الشكل هو صيغة «أرخية» مغرقة في القدم. ولا يمكن أن يكون الفينيقيون أخذوا هذا اللفظ بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وهو استنتج أن قصة التكوين لدى سانخونياتن تقوم على أساس قصة قديمة جداً للتكوين حول «ثوث» الإله الأعظم في «هرموبولس ماغنا» في أواسط مصر القديمة.(١١)

وما تجدر الإشارة إليه هو أن المكتشفات الأثرية الحديثة أثبتت أن شخصية «طاووتو» لم تكن مصرية فقط، كما اعتبرها أولبرايت وكثيرون من الباحثين غيره. فهي وجدت في نصوص العراق القديم، كما في نصوص «إيبلا» الكنعانية منذ أقدم أزمنتها، ولا تزال حية في عقائد اليزيدية بصفة رئيس الآلهة ويحمل لقب «طاووس ملك».(١٢)

وتذكر أخبار التراث البابلي كما وصلت إلى العربية أن «طاطا» هو ابن هرمس وأن هرمس انتقل من بابل إلى أرض مصر، وأن لطاطا كتباً في الصنعة كما لوالده هرمس.(١٣)

والصفات التي يوصف بها «طاوت» في الحضارتين المصرية والبابلية هي ذاتها التي يوصف بها «طاغوت» في التراث العربي. فقد رأى الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن» أن الطاغوت هو الساحر والكاهن والمارد من الجن، وأصله طغووت. وهذه الصفات تؤكدها الآية القرآنية: «ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً.» (النساء ٦٠).

وهذا يعني أن «طاغوت» كان ذا مركز محترم يحتكم إليه الناس في نزاعاتهم. وقد نهى الدين عنه. وقد ورد اسم إله في إيبلا «طاوشتا» مع صفة سومرية تقرأ «إن إن»، أي ملك الملوك.

وإذا كان الاندماج حدث بين نابو وطوطو في أرض الرافدين فإن هذا الاندماج حصل بين طاوت وهرمس في مصر، وهرمس وإدريس في التراث العربي. ونجد التسمية على قرية في جبال كسروان في لبنان باسم «بقاع توتا».

ويتابع أوزيب تلخيصاته قائلاً:

٦- **«وبعد أن أعطى أسماء الرياح: نوتس وبوريه والأخريات أضاف:**
هؤلاء الأوائل قدسوا عطاءات الأرض واعتبروها آلهة لكونها عناصر تحفظ الحياة. عبدوها هم أنفسهم وأحفادهم وجميع الذين كانوا سبقوهم وقدموا لها سكائب وأضحيات.»

يشير النص هنا إلى نهج فكري كان منتشراً في الشرق الأدنى القديم، ربما كاتب النص ذاته لم يكن يدرك أبعاده. وهذا النهج كان حصيلة بنية ذهنية تصنيفيّة للكون، يقسم الموجودات إلى أصناف، يعتبر كل صنف خاضعاً لقانون في وجوده. ولكل صنف بُعد لاهوتي مطلق يرعاه ويحكم مصيره باسم «أل». فللأشجار إله وللأنهار إله وللحبوب إله وللقطعان إله. وكل قوة غير محسوسة خلف الكائنات هي «أل». وقد جمع الكنعانيون هذه الصفات

بالجمع «إلوهيم» أي مجموعة آلهة الكون. وكان ذلك مقدّمة مفهوم التوحيد. وقد بلغ عدد هؤلاء الآلاف تحت اسم «أل»، وبقيت لنا من هذه التجربة «أل» التعريف العربية التي ترفع الاسم إلى المطلق غير المعيَّن والمحسوس.

ويكتمل هذا النهج بمدلول إعطاء الأسماء للرياح. فهذه العملية أيضاً ترمز إلى خلق الرياح ذاتها بإعطائها أسماء. ولنا من مطلع قصة الخلق البابلية دليل على هذا النهج، حيث المطلع يقول:

«لما في الأعالي لم تكن السماء قد دعيت باسم،
والأرض اليابسة الدنيا لم تكن قد سميت.»

٧- «وهو يتابع:

هذه المفاهيم للورع الديني تتوافق مع ضعفهم وخنوع نفوسهم. ومن ثم يقول متحدثاً عن الريح «كولبيا» وعن زوجته «باو» التي يترجمها بكلمة «ليل». ولد أيون وبروتوغون، إنسانان فانيان. هكذا أسماهما. وكان أيون هو الذي اكتشف الغذاء من ثمار الأشجار. وهذان أنجبا جينوس وجينية، وقد سكنا فينيقيا. وحدث جفاف كبير فمدّا أيديهما إلى السماء باتجاه الشمس، لأنهما كانا يعتبرانها —كما يقول المؤلف ذاته— إلهاً وحاكماً أوحد للسماء دعواه «بعل سمين»، أي حسب اعتبار الفينيقيين، حاكم السماء، وحسب اعتبار الإغريق «زوس».»

هذا النقد للفكر الديني وتديّن الإنسان بوجه عام، لا يمكن أن ينشأ إلاّ في ظل بيئة واسعة المجال للحرية والتمرد الفكري.

كما لا يمكنه أن يصدر عن مفكر إلاّ إذا كان واسع الثقافة، وثقافته متنوعة المصادر، وذا معرفة بأكثر من تجربة دينية. وهذا الوضع بالضبط ما كان عليه مثقفو لبنان خلال العهد الروماني، وفي زمن فيلون الجبيلي على الأخص، حيث كانت مدارس الفلسفة والعلم منتشرة في المدن اللبنانية، كما يخبر عن ذلك الإغريقي سترابو (٢:١٦، ٢٣ و٢٤). ولا شك بأن أوزيب أورد هذه الملاحظة كنقد لها، لاعتبارها نقداً للدين بوجه عام.

ونجد من الصعب جداً في اللغات السامية القديمة التمييز بين كلمتي ريح وروح، بل إن عدم التمييز هذا نجده في أساس الفلسفة التي تبناها بعض فلاسفة الإغريق والقائلة بأن الروح هي الهواء، أي الريح. ومنهم ديوجين وانكسمانس وغيرهما.[١٥]

وكذلك لنقل عن كلمة امرأة لوصف «باو» فقد يكون المقصود هو العنصر المنفعل في الطبيعة وليس المرأة كشخص، ما دامت توصف بكلمة «ليل»، أي المادة الموحلة التي ورد ذكرها في أولى الإشارات للتكوين. وهذه الفكرة تنسجم مع ما ورد في سِفر التكوين العبري: «وكانت الأرض بدون شكل خاوية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح اللّه يرف على وجه المياه.» (٢:١).

كما فكرة الليل هذه كانت في أساس جواب الفيلسوف طالس، عندما سئل عن الأسبق في الوجود: الليل أم النهار؛ فأجاب: «الليل». حسب نصوص ديوجين اللايرسي.

لقد حاول «دي بويسون» تفكيك كلمة «كولبيا» واعتبارها في الأصل «قول في ياه»، أي قول فم الإله ياه. متّبعاً في ذلك اجتهاد «بوخارت».[١٦]

كما هو رأى في ذلك انسجاماً مع الاجتهاد في تفسير كلمة «باو» التي اعتبرها رينان ولاغرانج تحريفاً كنعانياً في اللفظ لكلمة «بوهو» الواردة في مطلع التكوين العبري لوصف الأرض قبل تشكلها كما ذكرنا.

وما نستنتجه من قراءة النص هو افتراض ثنائية في أساس التكوين: الريح أو الروح، والمادة الفجة السوداء التي لا شكل لها. وهذه الثنائية هي التي قالت بها فيما بعد الفلسفة الرواقية والتزمتها الأديان السماوية.

ومن هذه الثنائية المبدئية ولد الكائنان الفانيان: أيون وبروتوغون. وهذان هما حلقتان في سلسلة التطور. وقد جرى الاصطلاح على مدلول كلمة «أيون» بأنه يختص بالزمن. وكانوا يحتفلون به كل سنة في مدينة الإسكندرية كظاهرة طبيعية متجددة. ويبدو أن تقاليد هذا الاحتفال كانت موجودة في حضارة الكنعانيين قبل وجود الإسكندرية. ونجد قرائن كنعانية هذا الكائن في تسمية بلدات في الجنوب اللبناني؛ هي مرج أيون ومجدل يون.

ولا نرى في اكتشاف ثمار الأشجار للغذاء سوى توكيد على مدلول الزمن «أيون». وقد كانت الاحتفالات بولادته تتم في «البتراء»، بإحضار صورته المدفونة وتزييحها، ثم إعادتها إلى مكانها في ٢٥ كانون أول كل سنة.(١٧)

وكلمة بروتوغون اليونانية تعني المولود الأول. ولا ندري ما هو الاسم الأصيل قبل ترجمته. أمّا ما يخص جينوس وجينيه فيرى دي بويسون (ص ٤٥)، أن المقصود هنا هو التعبير «أجيال وأجيال»، أي ما هو بالعبرية «دورفدور». والكلمتان يونانيتان

تحملان هذا المدلول. وإذ نشير إلى وجود هذا التعبير في العبرية، فهذا يعني أنه كنعاني الأصل، حيث معظم ما نعرفه عن اللغة العبرية كشفه العلماء في نصوص أوغاريت وإيبلا الكنعانية، قبل ظهور العبريين على المسرح التاريخي.

وهنا، حول عملية الخلق والتكوين لا يسعنا إلاّ التذكير بالآيات القرآنية التي عالجت هذا الموضوع، ومنها: ﴿وإذ قال ربك للملئكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.﴾ (الحجر ٢٧ و٢٨).

وتسمية «بعل سمين» للشمس وردت في معاهدة بين أسرحدون الأشوري وملك صور «بعل»، في القرن السابع قبل الميلاد، وذلك إلى جانب ملكارت وأشمون وبعل ملجأ وبعل صافون.(١٨)

وقد بقي التقديس للشمس كرمز للإله الأعظم حتى زمن الشاعر «ننوُّس» في نهاية القرن الرابع للميلاد، حيث وصفها: «اللابس للكواكب (استروختون)، هرقل، رب النار، المتجول بقرص من نور، ابن الزمن.» (٤٠:٣٦٨).

وعن سكن الإنسان الأول في فينيقيا، فهو ما نجده من معتقدات الشاعر ننوُّس حين يقول عن أبناء صور:

«الناس الساكنون هنا ولدوا معاً هم والزمن (أيون).
إنهم معاصرون للكون الخالد...
سلالة مقدسة للأرض العذراء.»

(٤٠:٤٣١-٤٣٥)

٨- «وبعد ذلك ينتقد ضلال الإغريق بالنص التالي:
ليس بدون سبب نورد عدداً كبيراً من التحديدات، وإنما لإظهار مدلول الأسماء المستعملة لموضوعاتهم، الأسماء التي تعامل معها الإغريق لجهلهم أي مدلول آخر، بعد أن ضللتهم أخطاء الترجمة.»

لقد حرمتنا تلخيصات أوزيب من تفصيلات كثيرة، لا بد أن يكون فيلون الجبيلي ذكرها، كنماذج لأخطاء الترجمة إلى الإغريقية. ولا نظن هذه التفصيلات كانت هنا سوى إيضاحات عن تقديس الفينيقيين لقوى الطبيعة، هذا التقديس الذي أخطأ الإغريق باقتباسه وظنوه تأليهاً مطلقاً. ولا يسعنا إلاّ الثقة بقول فيلون الجبيلي ما دامت غايته كانت تصحيح الأخطاء، وهذا يعني أنه يتجنب الوقوع في أخطاء مماثلة.

وكمثل، نورده نحن عن هذه الأخطاء، ترجمة كلمة «فخذ» إلى الإغريقية. فالقبائل السامية، ومنها العربية، تستخدم اصطلاحات لتعريف فروع القبائل، منها: فخذ وبطن. وعند الترجمة فهمها الإغريق بالمدلول المحسوس، فاعتبروا أن «ديونيسوس» مولود من فخذ «زوس»، أي من رجله وليس من فرع من قبيلة ما.

٩- «ويقول بعد ذلك:
ومن سلالة أيون وبروتوغون ولد أيضاً أبناء فانون، أسماؤهم هي: فوس (النور)، بير (النار)، وفلوكس (اللهب). وهم اكتشفوا النار بحك قطع من الخشب وعلّموا الآخرين هذه

الخبرة. وأنجبوا للعالم أبناء ذوي قامات عظيمة متناسقة، أطلقت أسماؤهم على الجبال التي كانوا يحكمونها. ومنهم أخذت جبال أسماءها: كاسيوس، لبنان، لبنان المقابل، وبراثي. ومنهم ولد «سممرومس» الذي هو هبسورانيوس، وعوزوس. وقد حملوا أسماء أمهاتهم، كما يقول، لأن نساء هذه الحقبة كن يضاجعن، بدون تردد، أي عابر سبيل.»

الأسماء المذكورة هنا كنسل أول للإنسان، هي مترجمة إلى اليونانية. ومن خلال هذه الترجمة، يبدو الخلل في سياق النص. وهو ما انتقده فيلون الجبيلي كأخطاء للترجمة والفهم الخاطئ لمدلول الأسماء. ومع هذا ليس لنا إلاّ الإشارة إلى أهمية اختراع إحداث النار في العهد القديم. ونحن نجد اسم «بير» النار، في اسم جد فينيقي، كان سكان «أرغوس» ينسبون له اختراع النار، بدلاً من «بروميثوس». كما يسجل ذلك بوزانياس (٢:٢٩، ٥). وهذا يعود إلى عصر موغل في القدم، حيث ينسب له أنه كان حكماً في نزاع حدث بين بوزيدون وهيرا على المنطقة. كما ينسب له أنه أول من جمع الناس في مجتمع منظم (٢:١٥، ٥). والاسم هو «بيروناوس»، أو «فروناوس».

ومن التقارب بين الاسم لدى بوزانياس ومدلوله والاسم لدى سانخونياتن والنار ومخترعها، نفترض أن الروايتين من مصدر واحد، وليس خيالاً أسطورياً. والقول أنهم أنجبوا للناس أبناء ذوي قامات عظيمة متناسقة ينسجم مع تسمية قبيلة «عماليق» الموجودة في المنطقة، والتي ذكرتها النصوص منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ورد ذكرها في لعنة بلعام بن باعور، بقوله: «عماليق

أول الشعوب وأمّا آخرته فإلى الهلاك.» (عدد ٢٠:٢٤).

وقد كان طول القامة امتيازاً لبعض قبائل المنطقة كما تذكر النصوص العبرية: «الإيميون سكنوا فيها قبلاً، شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين. هم أيضاً يحسبون رفائيين كالعناقيين.» (تثنية ١٠:٢). ثم: «بنو عناق، قوم عظام وطوال... من يقف في وجه بني عناق.» (تثنية ٢:٩). ثم: «إن عوج ملك باشان وحده بقي من بقية الرفائيين... هوذا سريره من حديد... طوله تسع أذرع وعرضه أربع اذرع بذراع رجل.» (تثنية ١١:٣).

وإطلاق الأسماء على الجبال ليس موضوعاً عابراً في التراث الفينيقي. فهناك جد أعلى لهم يُدعى «عباس»، أطلقوا اسمه على مدينة أسسها في بلاد الإغريق، كما يذكر بوزانياس (١٠:٣٥، ١). كما أطلقوا اسمه على جبل مطل على المحيط الأطلسي، كما يذكر أبولودورس (٢:٥، ١٠).

وتسمية الجبال هي إغريقية، حيث إن كاسيوس هو الجبل الأقرع في شمال اللاذقية وجبل لبنان معروف، ولبنان المقابل هو سريون أوسنِّير، وبراثي لا يزال مجهولاً برغم أن بعض الباحثين رأى أنه «أمانوس» أو «طابور». وقد رجح لاغرانج أن يكون الاسم هو لأمانوس، لأن كلمة «براثي» باليونانية تعني الصنوبر، وجبل الصنوبر لدى البابليين كان جبل أمانوس.(١٩)

و«شمم روم» هو ذاته بالترجمة اليونانية «هبسورانيوس»، أي علو السماء. وورود هذا النص مع ترجمته يؤكد وجود النص الفينيقي بين يدي فيلون الجبيلي. ونرجح أنه المعروف في منطقة صور باسم «عليان»، حيث هناك قرية قديمة تحمل هذا الاسم

«بيت عليان»، وهي من ألقاب البعل. ونجد في النص اليوناني اسم «أوزوس» مضافاً بين قوسين، مما يعني أن الناسخ استدرك سقوط هذا الاسم بسبب تلخيص أوزيب، فأضافه من عنده لملازمته سممروم بعد ذلك مباشرة كأخ له.

والإشارة إلى أن الرجال كانوا ينتسبون لأمهاتهم، تعني لنا إضفاء طابع القدم على هذه الوقائع، وهي ملاحظة ذات أصالة. فالذي يعرف أسماء القبائل العربية، يُدرك واقعية الانتساب للأم دون الأب: عاملة، ربيعة، كندة وأمثالها. وقد وردت هذه الإشارة لدى هزيود في قصيدته «الأعمال والأيام» (رقم ١٣١)؛ وهي لديه السلالة الفضية.

١٠- **«وبعد ذلك يقول:**
سكن هبسورانيوس صور وابتكر الأكواخ المصنوعة من الأقصاب والخيزران والبردى؛ ومن ثم تشاجر مع أخيه «أوزوس» الذي كان أول من اكتشف الملابس لحماية الجسد، وذلك من جلود الحيوانات التي كان يصطادها. وحدثت عواصف عنيفة وأعاصير فاحتكت أشجار صور ببعضها وأشعلت حريقاً التهم الغابة الموجودة في صور. حصل أوزوس على شجرة وجردها من أغصانها وتجرأ فأبحر بها في البحر، فكان الأول. وأقام نصبين: واحداً للنار والآخر للريح، وتعبّد لهما بتقدمات من دماء الحيوانات التي كان يصطادها.»

نفهم بكلمة هبسورانيوس «عليان السماوي»، أي بالكنعانية

«شميم رام». وهذا موجود في منطقة صور. أمّا تحديد صور وما إذا كانت البرية أم البحرية، فيأتينا خلال رسائل من الألف الثاني قبل الميلاد، تذكر أن المنطقة الجبلية المحاذية لصور كان يطلق عليها اسم صور أيضاً. فقد أرسل الفرعون المصري «مرنبتاح» في القرن الثالث عشر قبل الميلاد رسالتين: واحدة إلى رئيس صور ويدعى «بعلة رمق»، والثانية إلى ضابط مصري يدعى «نختامون» يقيم في صور العليا (صور روم).[٢٠]

كما في رسالة من ملك صور «أخي ملكو» في الزمن ذاته تقريباً إلى ملك أوغاريت «أور بعل» وهي بالأكادية، يذكر له أنه أرسل ابنه المريض للاستشفاء بعيداً عن المدينة، إلى مدينة رأس صور (أورو ساغ ذو صوري).[٢١]

ومن هاتين الرسالتين نكتشف أن تسمية صور كانت تتضمن منطقة برية واسعة إلى جانب الجزيرة.

ونجد في اسم «أوزو» اسم الإلاهة «العزّى»، التي تعبّد لها العرب قبل الإسلام. وهذه الإلاهة لها أكثر من قرية تحمل اسمها، أو تنتسب إليها في الجنوب اللبناني: عزّة، عزّيه. وكان الاسم يطلق على مدينة على الشاطئ، كانت صور الجزيرة تنقل منها المياه والحطب في زمن «تل العمارنه»، أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وحيث إن «العزّى» العربية هي ذاتها عشتار الفينيقية، وهي تقترن بنجمة الصبح، وتدعى أيضاً «الزهرة»، فإننا نجد شهادة مادية على التسمية في شكل إحدى برك رأس العين المثمّنة الشكل. وقد أنشأ المهاجرون الصوريون مدينة في شمال أفريقيا أسموها «عوزى». كما حملت الصحراء بين ليبيا وتشاد هذا الاسم حتى

اليوم. ونجد اسم العزّى في اسم أحد ملوك جبيل «عزى بعل»، في القرن الرابع قبل الميلاد.[٢٢]

وهنا نشير إلى أن هذه الإلاهة النجمة تذكر وتؤنث، وهي «النجم الثاقب». واختفاء المدينة الساحلية قرب صور لا يزال لغزاً محيِّراً ينتظر من يعالجه، ونرجح أنها غرقت نتيجة خسوف أرضي.

وهنا لا نستهين بالقول أن «أوزو» كان أول من أبحر على خشبة. فهذه الرواية لا بد من أن تكون تسجيلاً لدور مدينة أوزو البحري قبل صور الجزيرة. هذه المدينة ذكرها أسرحدون على شاطئ البحر، وكانت متمردة عليه وعلى حكامها الموالين له. وذلك في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد. وقد أجلى المتمردين معه للسخرة في بلاد أشور.[٢٣]

هذه المدينة لا بد من أن تكون هي التي أنشأت مدينة «عوزى» في شمال أفريقيا. وهي اختفت وخبا ذكرها حتى ظن الباحثون أنها صور البرية ذاتها، ولهذا أهمل ذكر اسمها.

أمّا العمودان اللذان أقامهما «أوزو» لنصبين للتعبُّد للنار والريح، فهما ما ذكرهما هيرودت في معبد صور، وكان أحدهما من الزمرد والآخر من الذهب الخالص، كما قال في القرن الخامس قبل الميلاد. وهما رمزان وجدا في معظم معابد الشرق الأدنى القديم. وقد صنع المهندس الصوري «حيرام أبي» عمودين من نحاس مراعاة لهذا التقليد لهيكل سليمان في أورشليم، كانا معجزة صناعية في زمنهما، أي في القرن العاشر قبل الميلاد (الملوك الأول ١٥:٧).

وقد ذكر سترابو عن آخرين أخبروه أن في معبد هرقل في مدينة قادش، على الأطلسي عمودين من البرونز بطول ثماني أذرع، ومحفورة عليهما تكاليف بناء المعبد (٣:٥، ٥). وقادش ذاتها كانت من إنشاء الصوريين في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، كما يخبرنا سترابو (٣:٥، ٥).

١١- **«وبعد موت هذين كرّس الذين خلفوهما لهما سواري وراحوا يؤدون العبادة لأنصابهما ويحتفلون بأعياد سنوية لهما.» «وبعد زمن طويل ولد من سلالة هبسورانيوس: أغروس واليوس اللذين ابتكرا الصيد البري والبحري واللذين منهما أخذ الصيادون اسمهم. ومنهما ولد أخوان ابتكرا الحديد وطريقة تصنيعه. وأحدهما، ويدعى «كوشر»، راح يمارس وضع القوانين والسحر والنبوءات. ويقال بأنه قام بدور «هيفستس» واخترع الصنارة والطعم والخيط والقوارب. وكان أول من أبحر من بين الناس. ولهذا اعتبروه كإله بعد موته.»**

عبادة الأنصاب، أو بالأحرى تقديسها كرموز، أمر مألوف لدى الكنعانيين. وقد وجدت العشرات من هذه الأنصاب المسلاّت في معبد جبيل منذ أقدم العصور المعروفة. كما هي وجدت منفردة في معابد محلية، وكانت تُعرف تحت اسم «بيتيل»، أي مسكن الإله. ولم تكن الأخشاب أو الأشجار المقدسة بعيدة بغايتها عن مدلول هذه الأنصاب الحجرية. وقد عرفت باسم «أشيرة» في النصوص العبرية: «تهدمون مذابحها

وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار.» (تثنية ٧:٥). ولا نرى في تقاليد وضع شاهد للقبر سوى استمرار لهذا العرف القديم في بلادنا. كما أن الاحتفالات بالذكرى السنوية لموت العظماء لا يزال مألوفاً لدى أبنائهم وأحفادهم.

ويتابع النص في وصف تطور السلالات البشرية من زاوية تصورية، لا علاقة لها بالموضوعية. وما يهمنا منه هنا، هو أن الشخصيات المذكورة فيه، لها أسماء متداولة في التاريخ. وهي، كما يبدو، تنطلق من ذات النهج المتّبع في الفصل العاشر من سِفر التكوين العبري الذي يفترض أن لكل قبيلة أو مدينة جداً أعلى حملت اسمه.

ويرى دي بويسون أن عليان (سمروم)، أي هبسورانيوس باليونانية كان معبوداً في صور في زمن قديم جداً، وهو ذاته يُدعى بعل شميم، حسب المعاهدة مع أسرحدون. كما هو يرى أن المعبد الذي كان على جزيرة منفصلة في زمن حيرام الكبير، في القرن العاشر قبل الميلاد كان للإله «عليان».[٢٤]

عرَّف النص اسم «أغروس» بأنه اسم لمهنة الصيد. وهذا هو مدلول الكلمة اليونانية. ويبدو أنها ترجمة لقبيلة «القنازيين» الوارد ذكرها في النصوص العبرية بين المجموعات التي كانت تقيم في أرض كنعان: «القينيون والقنازيون والقدمونيون والحثيون والفرزيون والرفائيون والأموريون والكنعانيون والجرجاشيون واليبوسيون.» (تكوين ١٥:١٩-٢١). وقناز هو من أبناء عيسو الذين تزوجوا من بنات كنعان حسب التكوين (١١:٣٦).

كما نشير إلى أن الباحث الراهب لاغرانج اعتبر أن فيلون

الجبيلي أراد تفسير اسم صيدا هنا كون الاسم يعني صيد البر وصيد البحر.[25] وهنا نجد خطأ، إذ النص يفصل بين صيد البر وصيد البحر، جاعلاً لكل منهما اسماً خاصاً. وهذا هو الواقع، إذ صيد البحر هو لفظة «داغ»، كما لا تزال بالعبرية. وقد استعمل أرميا اللفظتين في جملة واحدة (١٦:١٦).

ونترك هنا كلمة «إيليوس» مؤقتاً دون شرح. وننتقل إلى «كوشر». فهذا الاسم ورد في نصوص أوغاريت بصفته الماهر وفنان البناء لهياكل الآلهة، ومقره كان في «حكفت» أي في مصر. وهو الذي يصنع قوساً لاقهات بن دانيال ويعرف في هذه الملحمة «بعل حكفت إل كله» (١:٥، ٣٠ و٣١). وفي عمله القوس للصيد البري نجد سنداً لتسمية قبيلة قنازيين، أي قناصين على حدود مصر.

إن كوشر هذا عرفه دماشيوس لدى موخوس الصيدوني بأنه «الفتاح»، أي الإله الذي نعرفه باسم «بتاح» في مصر، إله مصر كلها، كما يقول نص أوغاريت. وهذا ذاته عرَّفه هيرودت باسم «هيفستس» في ممفيس عندما غزاها قمبيز وهتك مقدسات معبده فيها. وذكر هيرودت أن تمثاله هناك يشبه تمثال «بتاخي» الذي يضعه الفينيقيون على مقدّمة سفنهم (٣٨:٣).

ونحن عند العودة لصفات الإله «بتاح» في ممفيس، نجدها ذاتها التي ينسبها فيلون الجبيلي لكوشر. وكلمة «حاسس» التي ترافق الاسم في نصوص أوغاريت هي صفة نجدها في اسم «عطرا حاسس» في أرض الرافدين. وهي هناك تعني: المتفوق، العاقل الذي نجا بحكمته من الطوفان.[26]

والنص لا يوحِّد بين كوشر وهيفستس كما رأينا، بينما ينسب لهما أو لأحدهما ابتكار صناعة الحديد. وهنا نذكر، أن رفيق كوشر في نصوص أوغاريت هو الحداد هاين واسمه يكتب «هـ ي ن»، وذلك في ملحمة «البعل». وقد رأى البعض أنه قد يكون لقباً من ألقاب كوشر فقط (١:٤، ٢١). كما هناك اسم في التكوين العبري هو «الحوي»، من أبناء كنعان (١٠:١٧)، ولم نستطع تعيين مدلوله. فهل يكون هذا الاسم انتقل إلى الإغريق فغدا يطلق على الحداد، الفنان الأعرج «هيفست»...؟

ونصل إلى القول «كان أول من أبحر في البحر من الناس»، ونذكر أن النص كان ذكر هذه الصفة لأوزو (ف ١٠). وهذا يعني أن النصوص مجموعة من أماكن مختلفة وبروايات مختلفة.

١٢- **«وهو يُدعى أيضاً «ديو ملكيوس». ويدعي آخرون أن أخوته ابتكروا كذلك جدران الآجر (الطين). وبعدئذ ولد من سلالتهم شابان، يُدعى أحدهما «تقنيتس» والآخر «جينوس ابن الأرض» (أوتوكتون). وهما صمما مزج الصلصال بالقش وجعله يجف بالشمس؛ كما ابتكرا كذلك السقوف. وولد منهما أيضاً أناس آخرون، أحدهم يُدعى «أغروس» والآخر «أغرووِيرس»، أو «أغروتس». وتمثال هذا الأخير كبير الاحترام ومعبده في فينيقيا تجرّه الثيران. وسكان جبيل وحدهم يعتبرونه أكبر الآلهة.»**

الجملة اليونانية طويلة ومرتبكة؛ وهي مكتوبة بالصيغة

المصدرية، كما أشار لذلك «سيغبيه دي سانت بريسون» في القرن الماضي. ولهذا نحن لا نعرف من هو الذي يُدعى «زوس ملكيوس»؛ هل هو كوشر أو هيفستس؟ بل، هل هيفستس شخصية مستقلة أم هو مرادف توضيحي لكوشر، أدخله فيلون الجبيلي للعلاقة مع صناعة الحديد؟

وكلمة «ديو ملكيوس» تعني «الإله العذب»، ومن هنا نرجح أنه صفة لكوثر، لأن الكلمة تحمل معنى العذوبة باللغة العربية الوارثة للكنعانية.

ويرى دي بويسون أنه هو ذاته «بعل شميم» الصوري. كما يرى أنه قد يكون ترجمة لاسم «لطفن إل دفإد» في ملحمة البعل الاوغاريتية (٤:٤، ٥٨).[٢٧]

وتساءل الباحث الفرنسي الأب لاغرانج: ألا يكون كوثر الاسم الخاص لأحد كبار الآلهة «الكبيرم»؟[٢٨]

في الجواب يكون كوثر من تاسوع بتاح الذين ذكرهم هيرودت في ممفيس (٣:٣٨). ويكون موخوس على حق بجعله اسم «فتاح» صفة لكوثر. فالذين درسوا قصة الخلق الذاتي لبتاح وتاسوعه في لاهوت ممفيس، يرون أن كل واحد من هذا التاسوع كان أقنوماً يمثله[٢٩]، وله سلطته ذاتها.

وصناعة الجدران من الآجر أو اللبن تفيدنا أنها كانت خارج مناطق لبنان الجبلية. وهي معروفة في البادية السورية وأرض العراق منذ أقدم الأزمنة، وتكون عادة حيث لا توجد صخور للبناء.

وتسمية «تقنيتس» هي كلمة تفيد معنى فن الصناعة، ليس في اللغة الإغريقية وحدها، وإنما يبدو أنها من أصل سامي قديم، إذ

هي في الأكادية كما في الكنعانية. وآثارها في لبنان نجدها في تسمية قرية «بتخنيه» في الشوف، أي «بيت تقني» بيت الصناعة. أمّا تسمية جينوس أوتوكتون فتعني المولود من الأرض؛ والمرجّح أنها تسمية مرادفة لآدم ذاته، أي الناتج من أديم الأرض. وقد وصف الشاعر ننوس أبناء صور بأنهم مولودون من الأرض في القرن الخامس (٤٠:٤٣٢).

أمّا مزج الصلصال بالقش وجعله يجف بالشمس، فهو غير صناعة الآجر للبناء. وهذا كان مألوفاً في لبنان حتى أزمنة قريبة، حيث كانوا يصنعون منه ألواحاً بسماكة تقل عن خمسة سنتمترات ويجمعونها بعد ذلك لصناعة أهراءات وحواصر للحبوب، تكون مفردات أو مجموعات متلاصقة بالطين ذاته وبعلو أمتار. ولا يصلح لهذه الصناعة إلاّ تراب خاص أسمر اللون وشديد المرونة مع الماء.

وذِكر صناعة السقوف للبيوت هو عملية تصوّر لانتقال الإنسان من الكهف إلى بناء كهف من صنعه في المكان الذي يختاره. وما تجدر الإشارة إليه، هو أن المنازل الانتقالية الأولى، كما وجدت آثارها في بلاد الكنعانيين، كانت حفراً في الأرض ذات سقف من صنع الإنسان. وذلك تقليداً للكهف في أمكنة لا كهوف فيها.

أمّا تسمية الجيل الجديد بأسماء زراعية، فهي إشارة إلى انطلاق الحياة الزراعية أكثر من كونها تسجيلاً لأسماء أشخاص. وإذا كان لأحد هؤلاء تمثال وتقديس في فينيقيا، فيكون علينا أن نبحث عن الشكل الذي استمر به هذا التقديس. وهنا نفترض أن تسمية خليج بيروت باسم «خليج مار جريس»، إنما هو من بقايا

ذلك العصر البعيد. وقد ذهب بعض الكتاب إلى هذا الافتراض فاعتبروا الاسم يعود لابن كنعان الخامس، حسب نص سِفر التكوين العبري: «وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والأروادي والصماري والحماتي.» (١٠:١٥-١٨).

والغرغاشيون هؤلاء كانوا منتشرين مع شعوب أُخرى في بلاد الكنعانيين، وحول أريحا بالتحديد، حسب يشوع (١١:٢٤). كما كانوا حتى زمن المسيح، حسب إنجيل متى (٢٨:٨)؛ وكانت لهم أرض تنسب لهم. وحيث أن سِفر التكوين ذَكر أسماء المدن، فإن المرجّح أن «غرغاش» كان الاسم الأقدم لمدينة بيروت، ولهذا اسم الخليج هو في الأصل «خليج غرغاش»، قبل بروز الاسم المسيحي «جريس». وقد عيّن فيه المسيحيون واقعة صراع مار جرجس والتنين لإنقاذ ابنة الملك.

ونلفت هنا، إلى تقارب اسم «أغروت» مع بلدة «العاقورة» في منطقة «أفقا»، المطلة على جبيل. وحيث إن المنطقة هي، حسب العرف، مسرح حادثة أدونيس مع الخنزير، فنحن نرجح أن الاسم «أغروت» هو لأدونيس ذاته. والتمثال الذي كان ذا احترام كبير هو تمثال أدونيس. وكان يتم تزييحه بالتطواف به فوق عربة، في عيد سنوي له. كما نشير إلى أن اسم أدونيس هو صفة، تعني «السيد» بالفينيقية. وهذا يعني أن له أكثر من اسم متداول، عبر الأزمنة، وذلك حسب الوظائف الموكلة له، حيث هو هنا، بوظيفة إله للزراعة، كما تفيد اللفظة الإغريقية «أغرو-هيروس»، أو إله لنبات شقائق النعمان؛ وهي رمز لدماء أدونيس (النعمان). ولفظة

«أغروت» وصلتنا إلى العامية لتفيد معنى الإغراء الجنسي «عكروت»، على الأرجح.

١٣- **«هؤلاء هم الذين خططوا إضافة باحات إلى المنازل وتصوينات وأقبية. ومنهم تحدّر قرويون وصيادون، ويدعونهم غجراً (عليطي) وتيتاناً. وقد ولد منهم أمنون وماغون اللذان عرفا القرى والقطعان. ومنهما ولد ميصور وصديق الذي يعني اسمه المستقيم والعادل. واكتشفا استعمال الملح.»**

يسجل النص عملية تحول في فن البناء في مدينة جبيل، على الأرجح. والإشارة إلى الباحات أمام المنازل مع تصوينات حول البيوت، تدل على استقرار مدني هام، ونمو كامل للشخصية العائلية المستقلة، داخل أسوار المنازل. وكذلك نعتبر أن الأقبية أو الكهوف كانت مخازن للغلال وبيوت مؤونة للمنازل، وليست قبوراً. كما اعتدنا أن نجد ذلك في جوار القرى القديمة، حيث تكون محفورة في الصخر غالباً.

ونعتبر هذه الملاحظة اجتهاداً من الكاتب، تصوّر خلاله وقائع عملية التطور المدني. وهذا التصوّر لا يمكن أن يكون حدث في العهد الروماني، حيث كانت «الفيلات» الرومانية منتشرة مع ساحات عامة في مدن ذلك العهد وقراه. وقد رأى «دي بويسون» أن هذه الإشارة تعني هيكل بعلبك حصراً[٣٠]؛ وهذا ما نشك به.

أمّا الصيادون هنا، فنعتبر الإشارة لهم تكراراً، من مصدر

مختلف، لما افترضناه ذكراً للقنازيين الوارد ذكرهم في سِفر التكوين (١٩:١٥). ويوضح هنا أنهم غير المستقرين في الأرض. وكلمة «عليطي» التي ترجمناها بكلمة «غجر» لا تزال تعني في المعجم العربي من لا اسم له. ويبدو أنها كغيرها من الكلمات الكنعانية الكثيرة سجلها المعجم العربي، وكانت قد دخلت إلى اليونانية. وهذه الفئة غير المستقرة من الناس تماثل مجموعات الغجر في أوروبا و«النور» عندنا، وهم حتى زمننا يمارسون الصيد بواسطة كلاب يدربونها على شم أوكار الأرانب والقنافذ والغرير وغيرها في أريافنا، وهؤلاء لا أسماء قبائل لهم.

وتبدو كلمة «تيتان» مستعارة من الأساطير الإغريقية لتوضيح شخصية هذه الفئة الخطرة من الناس. فوفق هزيود «أن الأب الأعظم أورانوس لام أبناءه ودعاهم «تيتان» لأنهم عاندوه بوقاحة وقاموا بعمل سيعاقبون عليه بعد ذلك (مولد الآلهة ٢٠٧). والأسطورة لدى هزيود تعكس قصة أرض الرافدين وتمرّد مجموعة شريرة من الآلهة على الإله الأعظم «ماردوخ» في ملحمة التكوين البابلية. ويرى الباحث «روبرت غريفس» أن هزيود هو قدموسي، جاء من الشرق، من آسيا الصغرى وحمل معه قصة التيتان، والكلمة تعني باليونانية «المتمردين» (١:٦)، ويُعرِّف هوميروس التيتان بأنهم آلهة ما تحت الأرض، في الإلياذة (١٤:٢٧٩). وهذا هو دورهم في البابلية.

وحين عودتنا للألف الثاني قبل الميلاد، نجد هناك مجموعات متجولة في منطقة الشرق الأدنى، لا يمكن إهمال دورها. وقد أسماها السومريون «ساغاز»، كما أسماها الأموريون والكنعانيون «خبيرو»، أي عابري السبيل. وقد كان لهم شأن كبير في الفوضى

التي سادت المنطقة في زمن «تل العمارنة»؛ أي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وينسب بوزانياس للتيتان، نقلاً عن سكان «باتري» اليونانية، أنهم كانوا قد تآمروا على ديونيسوس لقتله (١٨:٧، ٣).

ولد منهم أمنون وماغون. في التاريخ اسم لبطل أسطوري يُدعى «ممنون»؛ يختلف الكتاب في نسبه، فمنهم من يرى أنه أشوري وغيرهم يقول أنه إثيوبي أو فارسي، اشترك بحرب «طروادة». ويذكره ديودورس الصقلي كقائد لجيش أشوري، ناصر الطرواد. وقد كان الجيش يتألف من عشرة آلاف سوزيانيين وعشرة آلاف إثيوبيين مع مئتي عربة (٢:٢٢). وتتداخل شخصيته لدى هيرودت بشخصية الفرعون المصري «سيزوسترس الثالث» وفتوحاته، وله تماثيل متعددة في البلاد التي تغلب عليها (٢:١٠٩). كما يذكر بوزانياس أن «قمبيز» الفارسي كسر تمثاله الضخم في مدينة «ممفيس»، وبقي نصف التمثال على قاعدته، وهو يصدر أصواتاً كل يوم عند شروق الشمس كصوت قيثارة (١:٤٢، ٢). وذكر سترابو أنه زار التمثال الذي يعتقد أن زلزالاً قد دمر القسم الأعلى منه. وذكر أنه سمع الصوت الأسطوري بنفسه مع رفاق له، وهو لا يجزم بتأكيد مصدر الصوت (١٧:١، ٤٦). وقد وجدت كتابات يونانيّة ولاتينيّة على قاعدة التمثال. ويختلف الأهلون بكتابة الاسم، وهو على التمثال «ممنون».

وهذا الغموض بالأسطورة حول هذه الشخصية يجعل الاسم غير بعيد عما قصده سانخونياتن، وبخاصة أن التمثال ينسب إلى أمنوفس الثالث، الذي اشتهر بالإنشاءات الحضارية بين (١٤٠٥-١٣٨٠ق.م)؛ أي الثامن من السلالة الثامنة عشرة حسب «مانيتو».[٣١]

أمّا «ماغون» فهو اسم كنعاني، اشتهر في قرطاجة كمؤسس للجيش، حسب المؤرخ جوستين (٧:١٨، ١٩). كما هو اسم الأخ الأصغر لهنيبعل. ولكن الاسم أقدم من هذين بكثير، إذ هو يرقى إلى عصر الميتولوجيا. ونحن نجد لدى هوميروس اسم «ماخيون». وكان طبيباً وابناً لاسكلابيوس الذي هو «أشمون» لدى الكنعانيين، أي إله الشفاء (الإلياذة ٢:٧٣١ و٤:١٩٣-٢١٨ و١١:٥١٧). ويوجد لماخيون معبد للشفاء في «جيرينيا»، كما يخبرنا «بوزانياس»؛ وهو له تمثال هناك ويلبس إكليلاً على رأسه رمزاً للمجد. ويسميه المسينيون «كيفو» (٣:٢٦، ٩).

السؤال هنا، هو التالي:

هل يكون ذِكر «ممنون»، اسم أول ملوك مصر، حسب هيرودت (٢:٩٩)، مقدّمة لاعتبار «ميصور» اسم «مصر» ذاتها...؟

يعتبر المؤرخ مانيتو، أول ملك لمصر يُدعى «مينس»، واسمه البديل مصرايم[٣١]. ومصرايم في التكوين العبري هو الابن الثاني لحام بن نوح (١٠:٦). ونحن نجد اسم «من» بين آلهة كنعان في معبد ممفيس: صبدو، رشف، بعلة، قدش، ميني، عناة، صافون...[٣٢] وهو يصوّر هناك كإله للتناسل بعضوه الجنسي المنتصب.[٣٣]

أمّا صديق المستقيم والعادل، فله مقام (مزار) قرب بلدة «تبنين» في الجنوب اللبناني. كما له بلدة باسمه «صديقين»؛ وكذلك له مزار في الجليل قرب بلدة «سخنين». وقد دخل تحريف على اسمه في المرويات الإغريقية، كما سجله أبولودورس «صندوقس». لكن ما يُنسب له يُثبت شخصيته. ويرى هذا المؤرخ أنه انتقل إلى «كيليكيا»، وأسس مدينة «قلندريا»، وأنجب «كنيراس» الكنعاني الذي أنشأ مدينة «بافوس» في قبرص. كما هو حفيد «كفالوس ابن هرمس». ويجعل هذا المؤرخ بلاد هؤلاء، الأرض الفينيقيّة، تحت اسم «سوريا»، كما عُرفت في العهد الروماني (٣:١٤، ٣).

واشتقاق الاسم يأتي من كلمة «صدق»، وهي تعني «العدل» في عدد كبير من اللغات السامية القديمة.

١٤- «ومن ميصور ولد "تاوتس" الذي اكتشف كتابة الحروف الأبجدية. ويدعوه المصريون "ثاوث"، والإسكندرانيون "ثوث"، والإغريق "هرمس". ومن "صديق" ولد "الديوسكورس"، أي "الكبيرس"، أي "الكوريبانتس"، أي "الساموتراسيون". وهم، كما يقول، أول من أوجد السفينة. وولد منهم آخرون اكتشفوا أشياء بسيطة، كالعقاقير ضد عضات الحيوانات والرقى.»

يحاول فيلون الجبيلي توضيح شخصية إله الكتابة في مصر. وذكره أنه ابن ميصور ترجح لنا أن اسم «مصر» جاء منه، ما دام مصرايم أخاً لكنعان، حسب رواية التكوين العبرية (١٠:٦).

وما بين أيدينا من نصوص عن هذه الشخصية الأسطورية، تُرينا أنها كانت معروفة بالاسم ذاته في أرض الرافدين، وفي «إيبلا» السورية، وفي باقي المنطقة، كما لدى الإغريق. وثبات هويتها يأتينا مما يُنسب لها من إبداع في الكتابة والتنبؤ بوجه خاص. فهي ذاتها: طوط، طاطو، طاوشتو، نابو، طاغوت، إدريس وهرمس؛

وغير ذلك من تحريفات اللفظة أو الصفات والتسميات. ولو كانت هذه النصوص متوفرة لفيلون الجبيلي، لما اكتفى بذكر اللفظ الإسكندراني له، والاسم الإغريقي دون غيرهما.

التوافق الملفت هو، أن المصريين رسموا «من» بعضو جنسي منتصب، كما ذكرنا؛ بينما كما يذكر هيرودت، يرسم الإغريق الأثينيون «هرمس» حفيد «من» بعضو منتصب. وهم كانوا تعلموا ذلك من «البلاسجيين» الذين كانوا يعتبرون ذلك من طقوس الدين لديهم (٥٢:٢).

والبلاسجيون هؤلاء الذين اعتبروا من أقدم شعوب بلاد الإغريق، يُرجّح الباحثون أنهم هجرة سامية قديمة ذهبت من فلسطين في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. ومن هؤلاء الباحثين «روبرت غريفس»، في موسوعته الميثولوجية (١:٢). ويذكر سترابو، أن «دناوس» الكنعاني، عندما انتقل مع بناته الخمسين إلى أرغوس، أصدر مرسوماً يعتبر فيه أن جميع البلاسجيين هم دانيون (٢:٥، ٤). وهذا يعني الاعتراف بنسبهم السامي.

وإذا اعتبرنا «ميصور» هو ذاته «مصرايم»، يكون «صديق» ليس سوى صفة لكنعان؛ وأولاده «الكبيرم»، أي الكبار، يكونون عندئذ آباء المدن والقبائل التي ذكرها سِفر التكوين العاشر، عند قوله: «وكنعان ولد صيدون بكره وحثا واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوّي والعرقي والسيني والصماري والحماتي، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني.» (١٠:١٥-١٨).

وحسب رواية هيرودت، فإن الأثينيين والساموتراسيين أخذوا طقوسهم من البلاسجيين. وكان هؤلاء يقدّمون أُضحيات

من جميع الأنواع للآلهة، دون تمييز أو تسميات. وكانوا يدعون هؤلاء بكلمة «ثيو» اليونانية، أي «الوهيم» بالترجمة الكنعانية. وقد دخلت الأسماء للآلهة من مصر إلى بلاد الإغريق، فعرفها البلاسجيون؛ باستثناء ديونيسوس الذي عرفوه متأخرين (٥٢:٢).

وكان معبد «الكبيري» في ممفيس، مُحرماً على غير الكهنة، في زمن هيرودت. وقد استباحه قمبيز الفارسي (٣٨:٣)، كما ذكرنا سابقاً.

يخبرنا بوزانياس، بعد هيرودت بما يقارب سبعة قرون، أن الكبيري كان لهم معبد في طيبة الإغريقية؛ وكانت هناك غابة موقوفة له. وكان للمعبد حرمة، وأن الجنود الفرس الذين انتهكوا حرمته ودخلوه أُصيبوا بالجنون وهلكوا. كما أن جنود الإسكندر من المقدونيين، وبعد احتلالهم طيبة، دخلوا إلى المعبد، فصعقتهم صواعق سماوية وهلكوا (٩:٢٥، ٥-٧).

وهكذا نجد أن الكبيري في منطقة «طيبة» كانوا محاطين بمعتقدات كنعانية، من بينها أشجار مقدسة موقوفة لهم، تماماً كما لا تزال المعتقدات عن الأشجار الموقوفة للمزارات القديمة في بلادنا.

ونجد في تعداد المرادفات لإيضاح شخصية «الكبيري» الفينيقيين، معرفة واسعة بثقافات الشعوب التي تبنت الفكرة. ولكن ما لم يذكره النص، هو التاسوع الفرعوني؛ وقد عرَّفه هيرودت في «ممفيس»، بأنه «كبيري»، وذكر «بتاح» رأس التاسوع باسم «هيفستس» المعروف لدى الإغريق، وافترض أن الباقين قد يكونون أبناء له. وكان التمثال الذي شاهده، مماثلاً للتمثال الذي يضعه

الفينيقيون على مقدّمة سفنهم، كما قال (٣٧:٣).

لم يذكر هيرودت أسماء للكبيري هؤلاء في القرن الخامس قبل الميلاد. لكن نصاً فرعونياً يتضمن دعاء من امرأة موسيقية، يذكر أفراد هذا التاسوع الكبيري بأسمائهم؛ فيقول: «... إلى التاسوع الذي في بيت بتاح، إلى بعلة، إلى قدش، إلى مني، إلى بعل صافون إلى صبدو...»[٣٤] وهذا يعني لنا أن الأسماء المذكورة من هذا التاسوع جميعها كنعانية الهوية، ولدينا قرى بأسمائها في لبنان، ومزارات ذات حرمة لبعضها.

ينسب النص للكبيري هؤلاء ولسلالتهم استعمال السفن. وهذه الإشارة تتكرر هنا للمرة الثالثة، مما يعني أن نص سانخونياتن كان يعتمد على تعدد في المصادر، وكل مصدر منها كان يدعي ابتكار الملاحة، وينسبه لفرد أو لجماعة يعتني بتاريخها. وكانت العقاقير الطبية والرقى والتعاويذ من الهواجس الأولى للإنسان. وكانت مهنة الطب وتوارث المعرفة بالأعشاب والعقاقير الطبية من مستلزمات حياة الاستقرار المدني. ويذكر لنا هيرودت أن الطب في مصر كان متفرعاً إلى اختصاصات، بحيث يختص كل طبيب بمعالجة مرض معيَّن؛ ويعدد لنا منهم أطباء العيون والرأس والأسنان والمعدة، بينما آخرون يكون اختصاصهم عاماً للأمراض والاضطرابات غير المعيَّنة (٨٦:٢).

وعند تعيين عضات الحيوانات، علينا أن نشير إلى أهمية هذه الإصابات في الحياة الزراعية القديمة، وبوجه خاص لدغات الحيّات السامة، وعضات الكلاب المسعورة. فهذه كانت مشكلة كبرى، أوردتها السجلات العبريّة، بالشكل التالي: «فأرسل الرب

على الشعب الحيّات المحرقة، فلدغت الشعب، فمات قوم كثيرون من إسرائيل.» (عدد ٦:٢١).

كما علينا أن نذكر معبد «إشمون»، في جوار مدينة صيدا؛ فقد كان هذا المعبد مخصصاً للاستشفاء. ولا بد من أن ذلك كان يتم بأكثر من الصلاة والتضرع للإله. فأشمون هذا، عرفه الإغريق باسم «اسكلابيوس»، وأنشأوا على اسمه مراكز استشفاء. ومن المستحسن للعلم الحديث أن يقوم بدراسة النباتات والأشجار النابتة حول هذه المعابد، لمعرفة ما في بعضها من خواص علاجيّة، كان القدماء يستفيدون منها في الطبابة، أو في تخفيف الألم.

أمّا الرقى والتعاويذ، فهي كلمات لها فعل الإيحاء، وهي كانت ولا تزال ذات فعل نفسي لدى عدد كبير من الشعوب.

وتتابع هذه الفقرة، فتقول:

«وفي عصر هؤلاء ظهر «عليون» الذي يدعى «هبسستوس» وامرأة تدعى «بيروت» كانا يسكنان في ضواحي «جبيل».»

عليون أو عليان أو العلي، يورد فيلون الجبيلي ترجمة للاسم باللغة اليونانية، وهو يعني علو السماء. وهو حسب التكوين العبري، إله ملكي صادق الكنعاني، مالك السموات والأرض (١٩:١٤). وقد تكرر ذكره في «المزامير» المنسوبة لداود. كما ورد كصفة للبعل في ملاحم أوغاريت (كرت ٣:٣ سطر ٦ و٨)، ونسب له المطر.

يعتقد «دي بويسون» أن لعليون هذا معبداً قرب جبيل، وهو أقدم من «إل»؛ وبذلك يتفق مع «دوسو»، بأن عبادة عليون هي

أقدم العبادات السماوية في المنطقة. وقد ترجمه الإغريق باسم «زوس»، بينما ترجموا «إل» باسم «كرونوس».(٣٥)

ونشير هنا إلى وجود قرية قديمة في منطقة صور باسم «بيت عليان». وقد فسَّر النص «بيروت» بأنه اسم فتاة اقترن بها عليون. وقد أخذ الشاعر الإغريقي المصري «ننوس» هذا النص، كأساس لملحمة كتبها عن بيروت، فاعتبرها فتاة تُدعى «بيروي» وقع بحبها إلّهان، تصارعا لأجلها؛ هما: ديونيسوس إله البر والكروم، وبوزيدون إله البحر والزلازل. وقد اشترطت والدتها عليهما أن يحافظا على المدينة، مهما تكن نتيجة الحرب (الديونيزياك ف٤١-٤٣).

ويبدو أن من يسميه المؤرخ جوزيفس «جوبيتر الأولمبي» في مدينة صور، هو ذاته «عليون». وهكذا تكون تسميات عليون: زوس، جوبيتر الأولمبي، بعل شميم، صميم روم، هبسورانيوس، وهبسستوس. ويذكر دي بويسون أن أبناء صور كانوا يرون في بعد شميم الذي يرمز له بالنسر «إل عليون» ذاته؛ وأنه والد ملكارت سيد المدينة (ص ٤٧). وقد ورد اسمه قبل اسم «إل خالق السماء والأرض والشمس الخالدة» في نص «عز تودع» في «قراطيبا».(٣٦)

وعليون، أو العلي، هو الإله الأعظم فوق جبل الاجتماع، كما يراه أشعيا عند قوله في نبوءة على ملك بابل: «وأنت قلت في قلبك، أصعد إلى السماوات، أرفع كرسي فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي.» (١٤:١٣ و١٤).

والإشارة إلى أن «بيروت» هي رفيقة «عليون» في ضواحي جبيل، ترجّح ما افترضه «دي بويسون» وجود معبد على اسمها في تلك المنطقة. ويكون اسمها الأصيل هكذا هو «غرغاش»، كما يرى بعض الباحثين الذين يستنتجون ذلك من اسم خليجها.

١٥- **«ومنهما ولد «إبجيوس» ابن الأرض (أوتوكتون)، وقد دُعي بعد ذلك «أورانوس» الذي استعير اسمه للدلالة كذلك على العنصر الذي فوقنا، وذلك بسبب جماله العظيم. وقد ولدت له أخت من الأبوين المذكورين ودُعيت «غايه». وبسبب جمالها دُعيت الأرض باسمها. ووالد هذين «هبسستوس»، بعد أن قضى بصدام مع حيوانات وحشية، جرى تأليهه، وكرّس له أبناؤه سكائب وأضحيات.»**

الاسمان اليونانيان يحملان معنىً متقارباً، وقد أوردهما النص للتأكيد على أن الجيل الجديد كان من الناس المقيمين في الأرض، وليس من الآلهة أو المؤلهين. لهذا ذكر استعارة الاسم لتسمية السماء وما فيها، والأرض وما فيها. إذ إن لفظة أورانوس تدل على السماء، بينما لفظة «غايه» هي من أسماء الأرض، وليس في اليونانية التي تستعير منها اللغات اللاتينية كلمة «غيو»، لتصنيف ما يختص بالأرض، بل بلغات أرض الرافدين القديمة أيضاً. حيث يُدعى إله الأرض بالسومرية «إن كي»، أي سيد الأرض. وقد استعملت اللغات التي تفرعت عن الأكادية الاصطلاح ذاته «كي» للدلالة على الأرض. وورثت العربية هذه التسمية تحت لفظة «غايه»، أي المدى الأرضي المقصود، في الأصل.

ونجد لدينا الآن في النص اسمين جديدين، هما: «أوران»، بعد حذف «السين» اليونانية؛ و«غايه»، أي السماء والأرض. ونجد في نصوص «أوغاريت» إلهاً باسم «حرن». وقد ورد ذكره في ملحمة «البعل»؛ كما ورد في ملحمة «كرت»[٣٧]. وفي الحالتين ورد للتهديد وتخويف الخصم بكسر رأسه.

وفي دراسة للباحث «جون غراي» رأى أن قرية «بيت حورون» في ضواحي «القدس» تحمل اسم هذا الإله الذي دخل إلى مصر مع مؤسس الأسرة التاسعة عشرة «حور محب». وقد ثبتت ساميته هناك لورود اسمه مع الإلهين رشف وعناة. وقد ورد اسمه بلفظ «أورونس» مع هرقلس كإله لبلدة «يمنيا» في فلسطين، وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد، في نصوص «ديلوس».

ولورود عبادة «الحية» في العهد الكنعاني في تلك المنطقة، رأى «غراي» أنه من آلهة الشفاء. وكانت «يمنيا» مستعمرة صورية، حسب نصوص الجغرافي الإغريقي «سيلاكس»، الذي ذكر أن عسقلان هي مدينة صورية في جوار «يمنيا» أيضاً. كما هو اعتقد أن وجود عبادة «عشترت» إلى جانب «حورون» في المنطقة ذاتها، يتفق مع ذكرها إلى جانبه في نصوص أوغاريت.[٣٨]

وهنا نعتقد أن الحية كانت رمزاً للشفاء؛ وصفة «ابجيوس» ابن الأرض التي تطلق على أورانوس تتفق مع طبيعة الحية. كما نحن نفترض أن تسمية منطقة «حوران» ذاتها في جنوب سوريا، تحمل علاقة مع هذا الإله الذي انتسبت لاسمه السماء.

ونضيف أن لقب «أفروديت أورانيا» الذي ذكره هيرودت في عسقلان، يتفق مع هذه الملازمة بين حورون وعشترت التي

توصف بأنها (شم بعل)، أي سمية البعل في نصوص أوغاريت.

ويُعلق الباحث أولبرايت على موضوع «حورن»، فيرى أنه ورد في أسماء أعلام بصفة أب، مما يعني أنه برتبة الإله «إل»؛ وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كما أنه يرسم بشكل حورس، وهو يحتضن رعمسيس الثاني بجناحيه. كما هو يرى أن الاسم في أوغاريت يجب أن يلفظ «حوران». وهو يرى أن الوصف لحورس «حورس في الأفق» ليس بعيداً عن التعبير «حورن في الأفق».[٣٩]

ونشير هنا إلى أن رمز حورس هو الصقر. وهذا يلقي ضوءاً على نص سانخونياتن القائل بأن السماء تحمل اسم أورانوس، حيث من ألقاب حورس في مصر أنه «سيد السماء»، وهو في العهد «الثيني» كان يرسم بشكل إنسان ورأس صقر؛ وذلك زمن السلالات المالكة، الأولى. وهو في مصر غامض الأصل، سوى أن الأساطير تعتبره ابناً لإيزيس وأوزيريس.

وفي العودة إلى تسمية «غايه» التي تعني الأرض بالمطلق في لغات كثيرة، نجد بلدة «جيّة» بين بيروت وصيدا تحمل هذا الاسم الذي استبدل حرف «الجيم» العربي بحرف «الغين» الكنعاني. كما هناك عين ماء قرب بلدتي يارون، جمع اسمها الحرفين معاً تقريباً للفظ الأصيل «غيا». واسم العين اليوم «رام جغيا». وهي بين تسميات مواقع مجاورة، كنعانية التاريخ والآثار. كما نجد الاسم جزءاً من اسم قرية «دردغاية» في جوار مدينة صور.

١٦- «بعد أن ورث أورانوس سلطة والده تزوج أخته «غايه». ولد له منها أربعة أبناء: إيلوس الذي يدعى أيضاً كرونوس، وبيتيل، وداغون الذي ليس سوى سيتون، وأطلس. ومن زواجات أُخرى ولد لأورانوس نسل كبير العدد. ولهذا ثارت غيرة «غايه»، فكدرت حياة أورانوس إلى درجة الانفصال بينهما.»

عليون هو والد أورانوس، أي هو الأقدم وزوج بيروت في منطقة جبيل. إنها قصة اتساع الحضارة واتساع اجتهادات الفكر طوال مئات السنين ليكون لكل جماعة رموزها ومقدساتها وقصصها. والاجتهاد البارز هنا هو في إيجاد نسب لأربعة من الآلهة المشهورين وللانتقال إلى فكرة اكثر عالمية في شموليتها. فقد غدا الموضوع يختص بالسماء والأرض معاً. وهنا نلمح أثراً لقصة الخلق البابلية، حيث سماؤها وأرضها باسم «أن شار وكي شار»، أي سيد السماء وسيدة الأرض اللذين منهما ولد الآخرون.

وفي زواج السماء والأرض لدى هزيود نقرأ أنهما ولدا ثلاثة أبناء عتاة قساة. وقد كرههم والدهم منذ ولادتهم، وكان يخبئ كل واحد منهم في مكان سري في الأرض، بحيث لا يدعه يرى النور. وقد نقمت عليه الأرض وقرّرت الانتقام منه (مولد الآلهة ١٤٧-١٧٠).

والخلاف هنا، هو أن المواليد لدى هزيود هم أشرار، مثل مواليد القصة البابلية، بينما مواليد سانخونياتن نبلاء، ذوو إنجازات حضارية.

يوحد النص بين إيلوس وكرونوس. ونفترض أن كلمة كرونوس أُضيفت للتوضيح بعد أن اشتهر استعمالها لدى الإغريق. وإيلوس هو الإله «إل» في التراث الديني السامي العام. وهو يمثل الألوهة في المطلق. وقد ورد ذكره في نصوص «إيبلا» السورية العائدة للألف الثالث قبل الميلاد. كما ورد اسمه كإله أعظم متعالٍ في نصوص أوغاريت، ووصف بأنه إله الرحمة (إل، دف إد)، وخالق الخلائق (ب ن ي ب ن و ت). كما يوصف « ل ط ف ن» أيضاً. وقد وصفه نص «عزت ودع» ملك الدانونيين في «أضنة» في القرن الثامن قبل الميلاد بأنه «خالق الأرض والشمس الخالدة وكل جماعة أبناء الآلهة».(٤٠)

والاسم التوضيحي «كرونوس»، برغم أنه عرف خلال التراث الإغريقي، فإن الباحثين يرون أنه وجد قبل زمن الهلينيين. وكان له عيد سنوي في الاعتدال الربيعي، حيث كان له معبد فوق قمة تلة تُدعى «كرونيون»، في منطقة «إيليا»، حسب بوزانياس (٦:٢٠، ١)؛ ويجعله المؤرخ المصري «مانيتو» والداً لأوزيريس في قائمة ملوكه. وكذلك فعل ديودورس الصقلي، حيث جعله والداً لأوزيريس وزوجاً لرحيَّه (١:١٣، ٢). وهذا المؤرخ ينسب إلى «ميلامبوس» نقل طقوس عبادة ديونيسوس وكرونوس عن مصر (١:٩٧، ٤)؛ وهو لاحظ أن المرتفعات تُدعى «كرونيا» على اسمه حتى زمنه هو. كما ذكر أنه كان يسود في صقلية وليبيا وإيطاليا (٣:٦١، ٣). ويذكر سترابو وجود معبد له في قادش على الأطلسي (٤:٥، ٣).

نلفت هنا، إلى أن المرتفعات في لبنان تُدعى «قرنة»،

وأشهر تسمية هي لأعلى قمة في لبنان «القرنة السوداء». وهذا يعني لنا أن مدلول اسمه مرادف لاسم «إل» الذي يعني العالي. ومن آثار تسمياته «جبل أكروم» في شمال لبنان وقرية «مجدل كروم» في الجليل. والاسم في هذه الأخيرة هو في غاية الوضوح، مما يرجّح لنا كنعانية الاسم، برغم عدم وروده في النصوص الحاضرة.

أمّا «بيتيل» الذي جعله كائناً إلهياً، فهو يعني في الأساس «بيت الإله»، وكانت رموزه مسلات تنصب للتيمن بها. وقد استشهد به «أسرحدون» الأشوري خلال معاهدة مع ملك صور «بعل»، إلى جانب عناة-بيتيل، وبعل سمين، وبعل ملجأ، وبعل صافون، وملكارت وأشمون، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، كما ذكرنا سابقاً.

وكان يعقوب كرّس حجراً في مكان رؤيا ظهرت له وأسماه «بيت إيل» (تكوين ٢٨:١٩).

كما كانت هناك بلدة باسم «بيت إيل»، أقام قربها أبرام عندما استقر في بلاد كنعان في فلسطين (تكوين ١٢:٨).

والمولود الثالث في النص هو «داغون» وتكشف لنا نصوص أوغاريت أن البعل يوصف بأنه ابن داغون. كما تكشف لنا نصوص «إيبلا» أنه كان يعتبر الأول بين الآلهة. وهذا يشير إلى قدم عبادته في المنطقة. وهو كان معبوداً للفلسطينيين، كما يخبرنا سِفر القضاة (٢٣:١٦). وكان له بدن سمكة ويدا إنسان، حسب صموئيل الأول (٤:٥). وقد ذكره حمورابي في مقدّمة شرائعه بصفته إلهاً خالقاً.

وتعريف داغون بأنه «سيتون» هو مقدّمة لاعتباره إلهاً للزراعة وزراعة القمح بوجه خاص، حيث إن كلمة «سيتون» تفيد معنى القمح باليونانية، بينما «دغن» تفيد المعنى ذاته بالفينيقية والعبرية. كما يأتي من اللفظ ذاته اسم «سمكة». ولكن الدور الكبير الذي نجده لداغون لدى الأموريين والساميين الغربيين بوجه عام يجعلنا نتردد بقبول العلاقة بين اللفظة ومدلولها، حيث هو «سيد البلاد»، في ماري وإيبلا وإله عظيم لدى سرغون الأكادي في «طوطول»، وإله خالق لدى حمورابي. وبفضله كان الملوك يحاربون وينتصرون.[٤٢] وهكذا لا تكون وظيفته محصورة في زراعة الحنطة أو صيد الأسماك.

له اكثر من بلدة باسمه في فلسطين، منها «بيت جن» في الجليل، وبيت جن بين يافا واللد. وكان له معبد حتى زمن المكابيين في «أشدود»، يلجأ إليه فرسان مهزومون طلباً للحماية (سِفر المكابيين الأول ٨٣:١٠).

تبقى لنا تسمية «أطلس»؛ فالاسم يعني المخفي والمعمىً. وقد أطلق الفينيقيون هذه التسمية على «جبل أطلس» في المغرب لدوام الضباب فوق قمته، بحيث تبقى مخفية صيفاً شتاءً. وذكر الاسم هيرودت، في القرن الخامس قبل الميلاد، وقال أن الأهلين هناك يدعونه «عمود السماء» (١٨٥:٤). ومن هنا، على الأرجح انتقلت الأسطورة إلى بلاد الإغريق واعتبروا «أطلس» حاملاً للسماء على كتفيه (الأوديسيه ٥٣:١).

ولوضوح الأصل السامي لهذا الاسم، نعتبر أنه من تسميات الفينيقيين هناك؛ كما هم من أطلق تسمية أعمدة هرقل على مضيق

جبل طارق، تشبيهاً لهما بالعمودين في معبد صور. كما هم من أطلق على الأطلسي اسمه، لغموضه واختفاء نهاية امتداده.

ولعل جذور أسطورة أطلس الإغريقية تعود للكنعانيين، حيث يبدو أنها كانت فكرة منتشرة قبل ظهور الإغريق بأكثر من ألف عام. فقد ظهر في «إيبلا» تمثال يقارب وصف أطلس الإغريقي. وهو لبطلٍ عارٍ، له جديلتان على جبينه، راكع بشكل التمثال الإغريقي، ويحمل قرصاً كبيراً بين يديه فوق رأسه. والقرص يحمل أربعة وجوه، وربما لأسدين متقابلين أو لرجلين، الذقن للواحد منهما مقابل الذقن للآخر.(٤٣)

والقول أنه كان لأورانوس زوجات أخريات أعطوه نسلاً كبير العدد، هو رفض لفكرة أب واحد للبشرية، وعملية تشخيص للطبيعة، يعود بنا إلى فكرة البيضة التي انقسمت إلى نصفين، هما السماء والأرض. ولإكمال التشخيص الذي بدأه افترض الافتراق بين أورانوس وغايه. وهذا اجتهاد فكري يراعي المنطق أكثر من التوغل في الخرافة.

١٧- **«ومع أن اورانوس كان مفترقاً عنها، فكان يستعمل العنف عندما كان يريدها، ويقترب منها ليجامعها، ثم يعود للافتراق عنها. وقد أخذ يعمل للقضاء على الأولاد الذين كانوا له منها، فحمتهم «غايه» بمساعدة حلفاء أخذتهم إلى جانبها.»**

«بلغ كرونوس سن الرشد وبرعاية «هرمس المثلث العظمة»، وإرشاداته، وقد كان أمين سرِّه، ثار ضد والده أورانوس ليثأر لوالدته.»

عند اعتبارنا نظرية التكوين هذه تشخيصاً لملاحظة طبيعية، نرى من المناسب إيراد ما يقارب هذه الملاحظة من عقائد وتفسيرات، حفظتها لنا بعض الكتابات القديمة. فنحن نفترض هذه النظرية مرتبطة بجبل حرمون الذي تعتبر «حوران» امتداداً شرقياً مرتفعاً له، إذا ما قيس ذلك بسهل «الحوله» المنخفض، في كعب هذا الجبل، وهو كان بمستنقعاته ومياهه وأرضه أخصب أرض كنعان.

لقد وجد نص آرامي في كهوف «قمران»، يحمل وصفاً لرؤيا، تربط قمة حرمون بالسماء، وأسفله بقلب الأرض، حيث ينبع نهر الأردن. والرؤيا هي أن «ليفي» بعد صلاة، وقع في سبات عميق، فرأى جبلاً عالياً جداً يجمع السماء مع الأرض، فقال: «ورأيت السماوات تنفتح، ورأيت أسفل مني جبلاً يصل إلى السماوات، فبقيت فوقه. وأبواب السماء كانت مفتوحة أمامي وملاك راح يخاطبني...».(٤٤)

لقد كان حرمون جبل الرؤى والأساطير. كما رأى الأب «مليك»، الذي شارك في دراسة مخطوطات كهوف «قمران»، أن يسوع فوق هذا الجبل تجلى لتلاميذه مع موسى وإيليا. ومن اسم منطقة «حوران»، على الأرجح، وكان حرمون يتبع لها، جاءت صفة أورانوس للسماء وكل ما هو سماوي. ومنها جاء صفة «أفروديت أورانيا». وهي لم تكن سوى عشتروت الحورانية. وقد كان الرفائيون الأسطوريون يعيشون في تلك المنطقة ويحصلون على حرمتهم العظيمة منها. ودليلنا إلى ذلك ما ورد في جغرافية يشوع عند قوله: «عوج ملك باشان من بقية الرفائيين، الساكن في

عشتاروت وفي إذرعي، والمسلط على جبل حرمون.» (١٢:١٣ و١٢:٤-٥). فوفق هذا النص، نجد حرمون جزءاً من منطقة حوران؛ وإذرع هي اليوم مركز المنطقة. وعشتروت هذه كانت مدينة ومركزاً لعبادة هذه الإلاهة باسم «عشتروت قرنايم». وكان الرفائيون يقيمون فيها في أيام أبرام (تكوين ١٤:٥).

وقصة الخلاف بين الأب والأبناء هي قديمة، تكررت في معظم قصص التكوين، بدءاً بالبابلية منها. ولكنها هنا تحمل معنى رمزياً هو نقمة ما هو سماوي على ما هو أرضي. وهذا ما ذكره هزيود في (مولد الألهة – ١٤٧)؛ وربما عن النص الكنعاني هذا، أو انهما معاً من أصل واحد. ونجد شرح شخصية هرمس في شرح الفقرة «١٤».

١٨- «ولد لكرونوس ابنتان، هما: برسفون وأثينا. وقد ماتت الأولى وهي عذراء، وبنصيحة من أثينا وهرمس صنع كرونوس من الحديد منجلاً وحربة؛ وعندئذ وجّه هرمس إلى حلفاء كرونوس كلمات سحرية أوحى لهم خلالها بالرغبة في الحرب ضد أورانوس، إكراماً لغاية. وهكذا اشتبك كرونوس في القتال. عزله عن السلطة وتسلّط مكانه. وفي هذا القتال أسر محظيّة أورانوس التي كانت حبلى وأعطاها كزوجة لداغون.»

الاسم برسفوني أو برسفاسا، جعل الرومان اسمها «بروصربين». وهي إلاهة موجودة في بلاد الإغريق قبل سيادة الهلينيين؛ كما يشير لذلك اسمها غير اليوناني. ويرجّح أنها فينيقية الأصل، لوجود قرية

باسمها في الجنوب اللبناني، هي «صرِّبين»، الاسم الذي عرفها به الرومان.

يذكرها هزيود بأنها ذات الذراع البيضاء «برسيفوني»، وهي ابنة زوس من «ديمتر» إلاهة العالم السفلي (مولد الآلهة ٩١٢). بينما تذكرها الإلياذة كزوجة لهادس، وملكة على الأموات (٤٥٧:٩). ويذكر أبولودورس أن «بلوتو» إله العالم الأسفل خطفها وترك والدتها ديمتر تبحث عنها (١:٤، ٥).

ووصف النص لها بأنها ماتت وهي عذراء يتفق مع اعتبارها من عالم الموتى في الروايات الإغريقية التي لا تذكر لها زوجاً وأبناء، باستثناء ديودورس الصقلي الذي يقول عن لسان الناس، أنها أم ديونيسوس من زوس، وقد ولدته في كريت (٥:٧٥، ٤). وحسب أبولودورس هي كانت محكومة بأن تمضي ثلث السنة مع بلوتو في العالم الأسفل والثلثين مع الآلهة (١:٥، ٣). وهكذا كانت تمثل دور البعل الأوغاريتي. ويرى «أوفيد» أنها كانت تمضي نصف العام مع زوجها هادس ونصفه مع والدتها ديمتر (٥:٥٦٤).

ونجد أقدم قصة مماثلة هي قصة «أرشكيغال» في أرض الرافدين، ولكن هذه كانت أختها «إنانا»، إلاهة الحب، هي التي تبحث عنها.

أمّا أثينا، ابنة كرونوس فهي النسخة الإغريقية للإلاهة الكنعانية «عناة». ويبدو أن اسمها ذاته هو سامي المعنى ويشتق من كلمة «وثن».

يرى هزيود أنها ولدت من رأس زوس، رمادية العينين، امرأة مخيفة، تثير صيحات الحرب، لا تتعب، وهي تقود الجموع وتحب الصراخ والصراع والقتال (مولد الآلهة ٩٢٨). ويرى «لاغرانج» أن أثينا كانت تُعرف في كورنثيا باسم «هلوتي»[٤٥]، كصفة لها، مما يشير إلى أصل سامي لها هو «الإلاهة». ويبدو أن مشاركتها مع هرمس هنا، هي التي جعلتها تُعتبر إلاهة للحكمة في التراث الإغريقي، ورمزها هو البومة، كما في الأوديسيه (٣:٣٧١). وكإلاهة للحرب تعتبرها الإلياذة بمستوى إله الحرب «أريس» (١٧:٣٩٨).

ويذكر بوزانياس أن قدموس أقام لها تمثالاً في عاصمته «طيبة»، باسم «أثينا أونغا»، أي «العنقاء». وقد استدل الباحث بهذا الاسم لإثبات هوية قدموس الفينيقية الصافية، وليس المصرية، لأن الكلمة المصرية للعنقاء هي «سايس»، كما يقول (٩:١٢، ٢).

وينقل هيرودت عن الليبيين أنهم يعتقدون أن أثينا هي ابنة إله البحر بوزيدون والبحيرة. وكان يجري قتال بين الفتيات على شرفها، ومن تموت منهن بسبب جروحها يكون ذلك إثباتاً على فقدان عذريتها (٤:١٨١).

وكما يذكر النص أنها تآمرت مع كرونوس ضد والدها أورانوس، كذلك نجد عناة في نصوص أوغاريت تهدد الإله «إل» بقولها: «بذراعي الطويلة سأحطم جمجمتك وسأجعل شيب لحيتك مخضباً بالدم.»[٤٦]

كانت كلمات السحر عقيدة عامة في الذهنية القديمة. وقد اختص بها العارفون بالحكمة والكتابة والفنون؛ مثل: إياونابو في

بابل، طاوت في مصر، هرمس في التراث الكنعاني والإغريقي، أخنوخ في التراث العبري وإدريس في التراث العربي. وكان هرمس يحمل صولجاناً ذهبياً يسحر به الآخرين ويقودهم، وتتبعهم الأرواح وهي تصرخ صرخات خفيفة كما تذكر الأوديسة (٢٤:١). وهذه الحالة ذاتها يشير لها النص.

يختلف وصف الصراع بين أورانوس وكرونوس في الرواية الإغريقية عنه في رواية نص سانخونياتن هذا. فهنا لا وجود للتيتان، بينما في الرواية الإغريقية لهم دور كبير في الصراع، حيث الذين تآمروا على أورانوس والدهم، غضب عليهم ودعاهم تيتان، حسب هزيود في (مولد الآلهة ٢٠٨).

وحسب الباحث «غريفس»، في موسوعته الميثولوجية، فإن هزيود الذي سجل هذه الأسطورة كان قدموسياً جاء من آسيا الصغرى، بعد سقوط الدولة الحثية، وهو جلب معه قصة خصي أورانوس (٦:١).

نجد نص الصراع بين الأب والابن في قصة حثية ذات أصل حوري، يقوم فيها «كوماربي» بدور كرونوس، و«آنو» بدور أورانوس.[٤٧]

ويرى هزيود أن عصر سيادة كرونوس كان العصر الذهبي، ولد فيه أناس فانون، عاشوا بسعادة حتى أن الموت كان يجيئهم كالنوم (الأعمال والأيام ١١٨).

وفي الإشارة إلى الاستيلاء على محظية أورانوس الحبلى، نحاول أن نعتبر ذلك تشخيصاً للصراع بين جماعتين لهما معابد

وآلهة مختلفة. وانتقال المحظية إنما هو انتقال لمعبد الإلاهة وبلدتها من فئة إلى أُخرى. وهكذا يكون الصراع عملية تشخيص لحرب وحركة تاريخية بين جماعتين من الناس، لكل منهما مقدساتها الخاصة.

أمّا داغون الذي حصل على محظية أورانوس والده كزوجة، فهو إله كبير شهير، كما ذكرنا في حاشية الفقرة «١٦»، ولا أرى في دخوله هنا في الصراع حول تركة والده سوى تداخل حضاري أموري في أرض الكنعانيين.

١٩- **«ولدت لدى هذا الأخير الولد الذي كانت تحمله من أورانوس وجعلت اسمه «دمارون». وفي غضون هذه الأحداث أحاط كرونوس منزله بسور وأنشأ أولى المدن، وهي جبيل في فينيقيا.»**

يرى دوسو أن اسم «دمارون»، هو تحريف لاسم «أمورو» إله الأموريين[48]، ويرجح أنه كان محقاً، بحيث يكون إدخال الاسم بين آلهة كنعان إشراكاً للأموريين في مقدسات الأرض، بعد أن وجدت هذه الشراكة خلال إله أعلى مشترك هو داغون.

لنا أن نفهم من هذا الصراع أنه تشخيص للصراع الدائم بين ما هو سماوي يمثله أورانوس، وما هو أرضي يمثله كرونوس (إل). وقد كان الانتصار لكرونوس الذي استقر في جبيل وأحاط منزله بتصوينة.

أمّا الادعاء بأن جبيل هي أقدم المدن، فهو يتكرر مع كل

من كتب عن مدينة. فقد كتب الشاعر ننوس عن بيروت في العهد الروماني ووصفها بأنها «سكن البشر المعاصرين للفجر» (٤١:٥٢)، كما «المقام الأول الذي أنشأه كرونوس ذاته» (٤١:٧٠).

وهذا الشاعر ذاته يقول عن مدينة صور: «الناس الساكنون هنا ولدوا معاً هم والزمن إنهم معاصرون للكون الخالد.» (الديونيزياكا ٤٠:٤٣١).

وانسجاماً مع بروز «دمارو» في منطقة جبيل، نعتبر أن النص يشير إلى بروز الأموريين، وإنشاء معبد له حرم وسور يحيط به. وهذا الزمن تكشفه لنا النبشيات الأثرية لما بين ٣٢٠٠ و٣٠٠٠ ق.م.، كما أظهر ذلك الأثاري «دونان». وقد كشف أيضاً أن السكن في جبيل يعود للعصر النيوليتي، أي أواخر الألف السادس قبل الميلاد. وكان أول سور يحيط بمدينة جبيل يضم حوالي خمسة هكتارات، ويعود لما بين ٣٠٠٠ و٢٨٠٠ ق.م.[49]

٢٠- **«وبعد هذه الحوادث أحسّ كرونوس بشكوك نحو أخيه أطلس فرماه في «هوّة» في الأرض وطمره فيها، بناء على نصيحة هرمس. وفي هذا التاريخ قام أبناء الديوسكورس بصنع أطواف ومراكب وسافروا في البحر، فرسوا قرب جبل كاسيوس (الجبل الأقرع)، وأقاموا معبداً هناك. وقد دعي أتباع إيلوس، أي كرونوس باسم «علوييم»، كما الذين اتخذوا اسمهم من كرونوس دعوا كرونيين.»**

أطلس لدى هزيود هو ابن «يافت» و«كليمين» ابنة أوقيانوس (مولد الآلهة ٥٠٩). وقد وصفه بذي القلب القوي.

ويافت في سفر التكوين العبري هو ثالث أبناء نوح (١:١٠)؛ وهو في الأوديسيه «أطلس ذو المشورات المؤذية، الذي يعرف أعماق كل البحر، ويسند وحده الأعمدة العالية التي تفصل بين الأرض والسماء.» (١:٥٣)؛ ولدى هزيود، هو يحمل السماء الواسعة على رأسه، ويقبض على أطراف الأرض بيدين لا تتعبان، وذلك كقدر عيَّنه له الإله زوس (٥٢٠-٥٢٣).

وبالإضافة إلى ما ورد في شروح الفقرة «١٦»، نضيف أن ديودورس الصقلي يسجل أسطورة مغايرة عن كرونوس وأطلس. فهو يقول أن المملكة توزعت بين أبناء أورانوس، وكان أبرزهم أطلس وكرونوس. وكان نصيب أطلس مناطق شاطئ الأوقيانوس. وهو لم يكتف بتسمية أتباعه هناك أطلنطيين، بل دعا الجبل الأعظم هناك «أطلس». وهو أكمل للناس علم النجوم وأعلن للناس كروية الأفلاك. ولهذا يقال أن السماء محمولة على أكتاف أطلس.» (٣:٦٠، ٢).

ونجد لدى أبولودورس أن أطلس هو ابن يافت وآسيا، وهو يحمل السماء على أكتافه (٢:١، ٣). ويذكر بوزانياس تلة في «بويتيا»، قرية من «طيبة» عاصمة قدموس الفينيقي، كانت تنسب لها أسطورة أطلس عمود السماء (٩:٢٠، ٣).

هنا، لا يمكن العبور بشخصية أطلس دون التطرق إلى ما ذكره أفلاطون عن غرق جزيرة «أطلنطس». فهذه الرواية منتشرة بين سكان شواطئ أفريقيا الغربية، ولا يمكن أن تكون مجرد خيال. ويرى الباحث «غريفس» في موسوعته، أنها تعود للألف الثالث قبل الميلاد؛ وأنها رواية عن غرق جزيرة «فاروس» في مصر. وهي تنسجم مع اعتبار أطلس ابناً ليافت ابن نوح، في الرواية الإغريقية.

وهو يرجح أن «يافت» الجد الأعلى لقبيلة كنعانية، نقلت قصة طوفان أرض الرافدين إلى بلاد الإغريق، فتبنى هؤلاء فكرة طوفان «دوكاليون» حفيد يافت (٣٩: ١-٣).

وهكذا يكون أطلس نقلنا إلى عصر كنعاني غامض، تشير له الذاكرة الشعبية. أمّا قول النص أن كرونوس ألقى أخاه في حفرة في الأرض وطمره، فنجد فيه توكيداً على انخساف الأرض أو ابتلاع البحر لمعبد أطلس.

وأبناء الديوسكورس الذين عرَّفهم كترادف للكبيرس أبناء صديق، إنما يعني بهم قبائل تتبعهم؛ وانتقالهم في البحر إلى الجبل الأقرع في الشمال السوري، إنما يعني هجرة قبلية كنعانية إلى تلك المنطقة، وهي منطقة أوغاريت واللاذقية اليوم. وقد وجد معبدان هامان في بقايا أوغاريت، أحدهما للإله داغون، والآخر، أحدث منه على الأرجح، للبعل. ووفق الملاحم كان للإله «إل» دور هام في عبادة المدينة.

بعد أن يؤكد النص على أن كرونوس هو «إل» ذاته، يقول: دعي أتباعه «علوييم». وهذه التسمية لا تزال تطلق على طائفة كبيرة في المنطقة، يرى المؤرخون العرب أنها نسبة إلى «علي بن أبي طالب»، والتسمية جاءتها بعد انتشار الإسلام. ولكن ورود هذه التسمية في القرن الأول للميلاد باللغة اليونانية تثير تساؤلاً حول تاريخية هذا القول.

٢١- «وكان لكرونوس ولد يدعى «صديد» قضى عليه بسلاحه الخاص، لأنه شك به، فانتزع حياته، وبذلك غدا قاتلاً لابنه؛

«وبالطريقة ذاتها قطع رأس ابنته، بحيث ارتعب جميع الآلهة من حالة كرونوس النفسية هذه.»

تسمية «صديد» هنا تثير مشكلة، فالاسم لم يرد بحرفيته في التراث الكنعاني، بل هناك اسم في التسميات الكنعانية بلفظ «صيد»؛ منها: صيديتن ابن جار صيد الصوري في أبيدوس، ويتن صيد منقوش على قبر في قرطاجة، حسب العالم الفرنسي «كليرمون غانو»(٥٠). كما وجدت كتابة على قاعدة تمثال في سردينيا، تقول: «إلى الرب صيد، إلى القادر بابي». وقد رأى الباحث موسكاتي أن هذا التمثال يعود للقرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد(٥١). وكلمة بابي تعني «الأب» كما يرى دي بويسون. ويكون الاسم هكذا جاءنا من فترة كنعانية غامضة، نرجح أنه ما يطلق عليه اسم «النبي صيدون»، في مدينة صيدا. وقد وجد اسم «عبدصيد» في معبد أشمون للقرن الخامس قبل الميلاد.

ولعله الاسم ذاته الذي ذكره سفر التكوين باسم «إل شدي» في زمن إبراهيم (١:١٧)، وبارك إسحاق يعقوب باسمه (٣:٢٨)، كما ظهر ليعقوب وغير له اسمه (١١:٣٥). وفي الترجمة العربية دُعي «الإله القدير»، وفي السبعينية دُعي الشديد القوي. وقد ورد ذكره أكثر من ثلاثين مرة في سِفر أيوب بلفظة «القدير»، كما ورد ذكره كمرادف لعليون في المزمور (١:٩١)، في القول: «الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت».

وقد وجد رسم أفعى ضخمة مع اسم «صيد»، على خاتم في أحد قبور سردينيا. فهل تكون هذه الأفعى رمزاً لموت «صيد»

(صديد) على يد والده كرونوس؟

إذا شئنا تفسيراً تاريخياً لهذه الحادثة نفترض أن عبادة «إل كرونوس»، قضت على عبادة «صيد» بالعنف، فتهجر هؤلاء إلى شمال أفريقيا، وبقي اسمهم فقط يطلق على مدينة صيدا، وعلى الجماعة التي كانت تعيش في المنطقة في زمن الإلياذة وما قبلها، حيث كان اسم الصيدونيين يطلق على جميع السكان وليس على أبناء المدينة وحدها.

كما أن قتل ابنته، يمكن اعتباره قضاء بالعنف على أتباع إحدى المعبودات لدى الكنعانيين، وهن عديدات.

وهذا يعني أن صراعاً طائفياً عنيفاً حدث على الأرض في زمن غامض لم يرصده المؤرخون.

٢٢- **«وبعد ذلك أرسل أورانوس سرّاً من منفاه ابنته العذراء عشتارتا مع أختيها رحيّه وديوني للقضاء على كرونوس بالحيلة. لكن كرونوس قبض عليهن واتخذهن زوجات شرعيات له، وهن أخواته.»**

عشتارتا أو عشتاروت، هي إلاهة سامية كنعانية، ذات نفوذ كبير في التاريخ القديم. كانت من معبودات الصيدونيين في زمن سليمان (الملوك الأول ١١: ٥ و٣٣). ولكنها في ملحمة «كرت» الأوغاريتية لا تذكر بالاسم، بل بصفة إلاهة (إل ت. ص د ي ن م) (٣٥:٤ و٣٩)، بينما هي تذكر باسم «ع ث ت ر ت» مراراً في ملحمة البعل، وتكون إلاهة صور «أشيرة» في ملحمة كرت

(أ ث ر ت. ص ر م)، دون التباس. وعشتارت في ملاحم أوغاريت توصف بالجمال وبحماية العدالة والتوازن بين البعل وخصومه (٢:٤٠)، وليس لها دور هام فيها.

عشتارتا هذه، كان لها معبد في منطقة أورانيا باسم «عشتروت قرنايم» في زمن أبرام، حيث اشتبك هناك مع الغزاة من الشرق، واستعاد منهم لوطاً ابن أخيه (تكوين ١٤: ٥-١٦).

ذكرها هيرودت في عسقلان باسم «أفروديت أورانيا» (١:١٠٥)، بينما ذكرها أرميا بلقب «ملكة السماوات» (ملك شمايم) (١٨:٧ و٤٤:١٧). وقد عبدها الإسرائيليون في زمن القضاة (٢:١٣ و١٠:٦).

اشتهرت كمثل للأنوثة والحب والجنس، ونشأت باسمها طقوس البغاء المقدس في ذكرى موت أدونيس في جبيل، كما يذكر لوقيان السميساطي في كتابة «الإلاهة السورية» (ف ٦).

ولا نزال في الموروثات الشعبية نستعمل كلمة «عشَّرت» لإناث الأبقار عندما تحمل من الفحل، أي تحلّ فيها «عشتار». وذكر عذريتها هنا يرجح أنه لتمييزها بالإغراء الجنسي والجمال، أي الصفة التي اتصفت بها فيما بعد لدى الإغريق باسم «أفروديت».

يذكرها الشاعر هزيود بأنها ولدت من زبد الموج على شاطئ «كيثارا» في قبرص (مولد الآلهة ١٨٨-٢٠٦)، بينما تحقق هيرودت من أن معبدها هناك بناه الفينيقيون على نمط معبد «عسقلان» الأقدم (١:١٠٨). وكان العرب يعقدون أحلافهم

بالدم باسمها «أورانيا» وباسم الإله «ديونيسوس» (٨:٣).

وفي الإلياذة يحصرها هوميرس بمهمة الحب والجنس، عندما ينصحها زوس بقوله: «أعمال الحرب ليست لك. وما عليك الاهتمام به هو أسرار الحب الزوجي، أمّا تلك الإعمال فهي من اختصاص أثينا وأريس ذي السطوة.» وذلك بعد أن وصفها باسم «سيدة قبرص» واتهمها بتحريك نساء الآخيين نحو الطرواد الذين كانت تحبهم حباً يائساً (٥:٤٢٣-٤٣٠).

ونجد تسجيلاً لهذه البعثة بين الآلهة في ملحمة البعل الأوغاريتية، حيث يكون الصراع بين البعل والإله «يم»، فيحاول البعل الإعتداء على رسل يم، وعندئذ تتدخل عناة وعشتارت فتمنعانه وتوبخانه. وكان الرسل يطالبون البعل بالاستسلام (٢:٤٠). وكما ذكرنا دائماً، كانت عشتارت تذكر دائماً مع «حورن» في هذه التمثيلية الموسمية، مع أنها ترد بلقب «سمية البعل» (ش م. ب ع ل). ويبدو أنها حافظت على هذا اللقب طوال أكثر من ألف سنة، إذ نجده حرفياً في السطر «١٨» من نص «أشمونعزر الثاني»، كما نشره كميل البستاني في المجلد «١٤» من دائرة المعارف؛ مع العلم أن النص الأخير كتب في أواسط الألف الأول قبل الميلاد، بينما النص الأول يعود لأواسط الألف الثاني قبل الميلاد، أو ما قبله، كما يفترض بعض الباحثين.

أمّا «رحيَّه» فيغيب اسمها عن السجلات الفينيقية، وهي لدى هزيود في مولد الآلهة ابنة الأرض والسماء (١٤٠). وقد اغتصبها كرونوس، فولدت له نسلاً لامعاً، بينهم «زوس أبو الآلهة والناس». وكان كرونوس يبتلع أبناءه بعد ولادتهم، خوفاً من

استيلائهم على عرشه، ما عدا زوس الذي فرَّت به والدته إلى جزيرة كريت وولدته وخبأته في كهف هناك (٤٥٣-٤٨٤). وفي الإلياذة يتقاسم أبناؤها الأرض، فيكون لبوزيدون البحر، ولزوس الفضاء، ولهادس عالم الموت (١٨٧:١٥).

ينقل أبولونيوس روديوس عن الفريجيين، أنهم كانوا يتوسلون الإلاهة رحيَّه بقرع الطبول والدفوف، وكانت صورتها محفورة في جذع شجرة (١١٢٢:١). وهذا ما يقربها من الإلاهة الكنعانية «أشيرة» أم الآلهة، في ملحمة بعل أوغاريت. ويذكر ديودورس الصقلي أن حتى أيامه، كان الأهلون يشيرون إلى خراب، قرب «كنوسوس» في جزيرة كريت، قائلين هذا بيت رحيَّه. وكان قرب المكان شجرة قديمة موقوفة لها (٦٦:٥، ١). وهذا ما كان لدى الكنعانيين حسب أخبار الأيام الثاني (١٦:١٥ و١٨:٢٤) وميخا (١٤:٥).

أمّا ديوني فيعرفها هوميرس بأنها والدة أفروديت (٣٧٠:٥)، وهي لدى أبولودورس إحدى التيتان (١:١، ٣). ويعتقد دي بويسون أن فيلون أطلق اسمها على أشيرة إلاهة جبيل[٥٢]. وذلك وفق فكرة مبدئية لديه، وهي أن فيلون الجبيلي اخترع نص سانخونياتن بكامله من عنده.

نرجّح أن الأسم هو ترجمة لكلمة «الإلاهة» في اليونانية «ديو»، وليس أكثر؛ وذلك لغياب التسمية عن تراث الساميين.

٢٣- «وعلم أورانوس بالأمر فأرسل ضد كرونوس هيمارمين وحورا مع أحلاف آخرين، فضمهم كرونوس إليه، واحتفظ

بهم قربه. ويقال أن أورانوس تخيل بيتيل وجعل حجارة حية. وولدت عشتارتا لكرونوس تسع بنات هن التيتانيد أو الأرطميد.»

يبدو أن فيلون الجبيلي استعمل تسمية هيمارمين اليونانية، وهي تعني «القدر»، لترجمة اسم فينيقي غير مالوف كثيراً. ونجد إلاهات القدر هؤلاء لدى هزيود، وهن: كلوثو، وأتروبوس، ولاخيزس، وهن يقررن للناس الجيد والسيء، أي الخير والشر (مولد الآلهة ٩٠٥).

يستخدم هوميروس القدر في الإلياذة، بوصفه قوة غاشمة (٨٣:٥ و١١٦:١٢ و٢٢:٥). والإلاهاتِ الحظ لدى هزيود هن بنات «طامة» من زوس الذي يحترمهن كثيراً (٩٠٢). نلاحظ هنا، أن اسم طامة ابنة الأرض، ليس سوى الإلاهة «طامة» في الأساطير البابلية، وهي من قاد قوى الشر الأرضية لمحاربة «ماردوخ»، في ملحمة التكوين البابلية، مما يعني الأصل الشرقي للحظ لدى هزيود.

وحورا، يبدوا أنها من أقدم إلاهات الكنعانيين اللواتي عرفهن الإغريق. ولها وادٍ باسمها، قرب بلدة «كفركلا» الجنوبية. واسمها باللغة العربية يعني البياض، وهي مفرد كلمة «حور» الواردة في القرآن الكريم. في الإلياذة وصفت حورا بأن لها عيني بقرة (٥٥١:١). كما وصفت بأن لها ذراعين بلون البياض (٢٧٧:١٤). ووصف الحور بأنهن يحرسن أبواب السماء (٧٤٩:٥ و٣٩٣:٨). وهي توصف لدى هزيود في مولد الآلهة بأنها ذات الحذاء الذهبي (٩٥٥)، وكذلك وصفتها الأوديسة (٦٠٤:١١).

هي دائماً كانت على خلاف مع زوجها الإله زوس وتتهمه بالتآمر عليها. وفسر بعض الباحثين هذا الخلاف بافتراض أن عبادتها كانت منتشرة في بلاد الإغريق، قبل عبادة زوس، وقبل وصول الهلينيين إلى البلاد. وزواجها من زوس لم يكن سوى تفسير لسيطرة أتباعه على البلاد.

ينقل سترابو عن الجغرافي «أرطميدورس»، أن للإلاهة هورا جزيرة ومعبداً باسمها قرب أعمدة هرقل (٣:٥، ٥). وهذا يعني أن تسمية الجزيرة الصغيرة هناك تعود للذين أسسوا مستعمرة قادش. وهؤلاء كانوا من أبناء مدينة صور في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

ينقل سترابو عقيدة شعبية، تقول أن هورا كانت ولدت في أرغوس (٢:٩، ٣٥)؛ وليس هذا تناقضاً مع كنعانية هورا، لكون أرغوس كانت مسرحاً للروايات الكنعانية مع الدانيين الذين استعمروها. وهي حسب الإلياذة، كانت تعطف على الدانيين (١:٥٦)، وكان جبل الأولمب يهتز عندما تغضب (٨:١٩٩).

وكان أبناء أرغوس يقيمون طقوساً سرية لهورا، ويعتقدون بينبوع يُدعى «كناثوس»، قرب الشاطئ يقولون أن هورا كانت تغتسل فيه كل سنة، فتعود لها عذريتها (بوزانياس ٢:٣٨، ٢). وتبدو هذه إشارة إلى الزواج الإلهي المقدس الذي كان يمارسه الكنعانيون هناك. وقد أشار إليه بوزانياس (٢:٣٧، ٥) في أعياد ديونيسوس الليلية.

يسجل لها أبولودورس خلافاً طريفاً مع زوس، وهو خلافهما على اللذة الجنسية بين الرجل والمرأة، حيث استعانا بتريزياس للحكم بينهما، فحكم بأن اللذة حين تقسّم على عشرة أجزاء،

يكون نصيب المرأة منها تسعة، ونصيب الرجل يكون واحداً فقط. فاغتاظت هورا، وحكمت على تريزياس بالعمى، وعوضه زوس عن النظر بموهبة التنبؤ (٣:٦، ٧).

أخيراً، لا ننسَ أن الزوجة التي وعد الإله إيل بها البطل كرت في ملاحم أوغاريت، كان اسمها «ح ري». وقد سافر مع جيش إلى أطراف الصحراء ليحصل عليها.

وعند ذكر أحلاف آخرين لا نفهم سوى أتباع مناصرين من فئات أخرى.

ومعنى «بيتيل» التي صنعها أورانوس، هو أرقى أفكار التجريد التي ابتكرها الكنعانيون. فما هو مادي، ليس إلهاً أو وثناً يعبد لشكله أو خواصه المادية، بل هو سكن للإله أي مكان معيَّن يمكن للمتعبد الاختلاء بنفسه عنده مع الفكرة المجردة العالية وغير المنظورة. وكما تفيد هذه الأشكال التي أطلق عليها اسم «بيت إل»، كانت حجراً بشكل مسلة حادة تتجه برأسها نحو العلاء. وهذه الحجارة «المروَّسة» نعثر عليها في معظم الخرائب اللبنانية. ويبدو أنها كانت توضع في كوى داخل المنازل وذلك بسبب الحجم الصغير الذي تكون عليه أحياناً. وما لدينا منها يشير إلى أنهم كانوا يفضلون الحجارة البازلتية السوداء لصناعتها، حينما توجد هذه الحجارة، وهي نادرة في أرض لبنان.

وقد وجد الباحث الفرنسي «دونان»، ما لا يقل عن ثلاثين من هذه الحجارة، في قاعة معبد، في خرائب جبيل، وهي من حجوم مختلفة، مما يعني أنها كانت تقدم كنذور للمعبد من الأهلين هناك. وقد أطلق عليها صفة «مسلاّت»، مستعيراً الصفة

من مثيلاتها التي وجدت في مصر بحجومها الغرانيتية المتميزة.

وقد أشار سِفر التكوين إلى مثل هذه الحجارة الرموز، حين مخاطبة الإله ليعقوب، بقوله: «أنا إله بيت إيل حيث مسحت عموداً ونذرت نذراً.» (١٣:٣١). وقد دعا العبرانيون مثل هذا العمود «مصباح» بالعبرية. وكانوا يسكبون عليه سكائب من الزيت.

مع تقدّم الزمن، غدت لهذه الأنصاب حرمة وقداسة، حيث نجدها تذكر بين أسماء الآلهة كشهود على المعاهدات الدولية، كما وجدنا ذلك في معاهدة بين أسرحدون الأشوري وبعلو ملك صور، في أواسط القرن السابع قبل الميلاد. وقد ورد ذكر الشهود كما يلي: بيتيل وعناة بيتيل، ثم بعل شميم وبعل ملجأ وبعل صافون، ثم ملكارت وأشمون، ثم عشتارت.[٥٣]

ونجد لبيتيل شخصية مستقلة لدى أرميا، حيث يقول: فيخجل مؤاب من كموش كما خجل بيت إسرائيل من بيت إيل الذي يتكلون عليه.» (١٣:٤٨). فهنا نجد بيتيل شخصية لاهوتية يلتجئ إليها المتعبدون للشفاعة. ولكننا لدى عاموس نجد بيتيل إلهاً وبلدة في الوقت ذاته، مثل معظم البلدات الكنعانية التي تحمل أسماء آلهة؛ فهو يقول: «هكذا قال الرب لبيت إسرائيل: اطلبوني فتحيوا ولا تطلبوا بيت إيل وإلى الجلجال لا تذهبوا، وإلى بئر سبع لا تعبروا، لأن الجلجال تسبى سبياً وبيت إيل تصير عدماً.» (٥:٤-٦). فهو اسم بلدة نجده في أرض كنعان منذ وصول أبرام إليها وإقامته شرقيها (تكوين ٨:١٢).

والإشارة إلى الحجارة الحية، إنما يعني إعطاءها بعداً إيمانياً، وقيمة لاهوتية غير موجودة في مادتها الطبيعية، تماماً كما هي الرموز في الديانات المختلفة. وقد وجدت رسوم لهذه الأنصاب على النقود الصورية في العهد الروماني. وأشهرها تاريخياً، عمودان ذكرهما المؤرخ هيرودت في مدينة صور، في القرن الخامس قبل الميلاد (٤٤:٢). كما ذكر سترابو مثلهما في معبد هرقل في مدينة قادش على شاطئ الأطلسي (٣:٥، ٥).

التيتان لدى هزيود هم أبناء أورانوس المتمردون عليه وليس أبناء كرونوس (مولد الآلهة ١٣٢). والتمرد مقتبس من قصة الخلق البابلية، كما قلنا.

وجود سبع بنات لعشتارت، يرى دي بويسون، أنهن نجوم سبعة حول فينوس، أي نجمة عشتارت. وبتوضيح النص أنهن أرطميد، يكنَّ بعيدات عن التيتان، المعروفين لدى الإغريق، وقريبات من الإلاهة «أرطميس». ويكنَّ بالأصل «تانيد»، أي تابعات الإلاهة «تانيت» التي اشتهرت لدى القرطاجيين؛ ولها أكثر من أثر لاسمها في لبنان الجنوبي. وكان هذا التصحيح للأب لاغرانج[٥٤]. وينقل دي بويسون عن «كليرمون غانو» توحيده بين التانيدات السبع، والإلاهات السبع، اللواتي حضرن ولادة حورس في مصر باسم «حتحور».[٥٥]

في نصوص أوغاريت، نجد فتيات الخصب المشابهات لتابعات أرطميس، يحضرن احتفال «دانيال» في توسله الإله لولد يرثه، وهن باسم «كوثرات»، بنات «هلل» (١:٢س ٢٦-٤٠). وكانت أرطميس تحرص على إبقاء تابعاتها عذارى.

عُرفت في بلاد الإغريق قبل الهلّينيين كسيدة للحيوانات المتوحشة، حسب الإلياذة، وبأنها أسد بين النساء (٢١:٤٧٠-

٤٨٤). وكان لليّدين تمثال ومعبد لها، باسم «أرطميس عنايتي»، استولى عليه الفرس كغنيمة حرب؛ وقد استعاده أبناء اللاذقية كما يخبر بذلك بوزانياس (٣:١٦، ٨). يلفتنا هنا اسم «عنايتي»، واهتمام أبناء اللاذقية السورية بالتمثال. عند المقارنة بين نصوص أوغاريت المجاورة للاّذقية وبين اختصاصات عنايتي هذه، نجد أنها ليست سوى الإلاهة الكنعانية «عناة»، التي كانت لها هذه الاختصاصات العنيفة في ملحمة بعل أوغاريت. وقد حملت صفتها في بلاد الإغريق اسمها الكنعاني الأصيل.

٢٤- «وولدت له رحيّه هي الأخرى مثل هذا العدد من الأبناء، جرى تأليه الأخير منهم منذ ولادته. وولدت له ديوني بنات. ومن جديد ولدت له عشتارتا ولدين، هما: بوثوس وإيروس.»

لدى هزيود، نقرأ أن كرونوس اغتصب رحيَّه، فولدت له ثلاث بنات وثلاثة أولاد؛ هم: هادس إله الموتى، وبوزيدون إله البحر، وزوس إله الفضاء (مولد الآلهة ٤٥٣). ويبدو الاجتزاء واضحاً في النص لسكوته عن أسماء هؤلاء والاكتفاء بذكر دور الأصغر منهم. كما لم يرد ذكر لبنات ديوني.

أمّا ابنا عشتارت، فبوثوس هو تشخيص للشهوة والرغبة في اللغة اليونانية، كما يفيد معنى الكلمة. وإيروس هو لفظة سامية في الأساس، ولم ترِد مشخّصة في اللغة اليونانية، بل وردت في الإلياذة كدلالة على الحب والرغبات الجنسية (٣:٤٤٢ و١٤:٢٩٤)، بينما لدى هزيود ورد الاسم مشخّصاً لإله مرافق لافروديت، التي منذ ولادتها كان العشب ينبت حيث تدوس (مولد الآلهة ١٩٠-٢٠١).

وهذا يعني لنا أن هزيود أخذ تشخيصه عن الفينيقيين، لكن هذا التشخيص تراثاً سامياً مشتركاً لا يزال موجوداً في اللغة العربية، كاسم لعضو الرجل الجنسي. وأقدم تسجيل له نجده في صلاة باللغة الأكادية، كانت تُتلى بمناسبة حلول السنة الجديدة. وكان يتمثل بنجم في السماء مسؤول عن خلق بذور الإنسال الجنسي. والصلاة كانت توجه للبعلة من قبل كاهن المعبد[٥٦]. والصلاة قديمة التداول، مع أن النسخة التي وصلتنا كانت من العهد السلوقي. وكانت الصلاة تُتلى في الثاني من نيسان.

في الفلسفة اليونانية، نقرا لدى بارمنيدس قوله: «الألوهة تدبِّر جميع الأشياء، لأنها أصل التناسل، وهي التي تقود الأنثى للاجتماع بالذكر والذكر للاجتماع بالأنثى (ف ١٢)، وقبل كل شيء خلقت الآلهة «إيروس» (ف ١٣).

يذكر بوزانياس، أنه يوجد رسم له في «إيجيرا»، يمثله بأجنحة، وبرفقة إلاهة الحظ، وبينهما نار موقدة (٧:٢٦، ٣). ويشخّصه أبولونيوس روديوس بشكل إله فتي جميل (٣:١١٤). وكونه ابن عشتارتا هنا، يتناسب مع دورها كإلاهة للجنس والإغراء.

٢٥- «وبما أن داغون اكتشف القمح والمحراث تلقى اسم «زوس الفلاّح». وصديق المعروف بالعادل اقترن بإحدى التيتانيدات فغدا والداً لاسكلابيوس.»

لم يشتهر اسم داغون بين آلهة كنعان في الألف الأول قبل

الميلاد، مع أنه وصف كأب للبعل في أوغاريت، للألف الثاني قبل الميلاد؛ واسمه ذاته يعني «القمح» في اللغة العبرية، ولا شكّ أنه يعني ذلك في اللغة الكنعانية. وعندما يقول النص أنه زوس الفلاّح، إنما يعني ذلك أنه الإله الأعظم المختص بالفلاحة. وكان هذا مركزه لدى الإيبلاويين في مناطقهم الزراعية.

وهذا يعني لنا بالتالي، أن النص يتعلق بدور الإله في إيبلا، وأوغاريت للألف الثاني قبل الميلاد. وقد لاحظ الباحث «دورم»، أن داغون هو إله قومي للأموريين الغربيين، ولا علاقة له بالسومريين أو الأكاديين أو البابليين أو الأشوريين. فهو برز على الفرات الأوسط، وكان في «ماري» يلقب «ملك البلاد». وقد دخل مع الأموريين إلى بلاد سومر.[٥٧]

وجود داغون في النص، يرجّح لنا اعتبار «دمارو» أمورو الأموريين، كما ذكرنا في شرح الفقرة «١٩». وكان داغون يُدعى سيد كنعان وسيد الآلهة في إيبلا، وكان الشهر الأول فيها باسمه.[٥٨]

واقتران صديق والد الآلهة الكبار بإحدى التيتانيد، نفهم به اقترانه بإحدى التانيدات، حيث غدا أباً لأشمون (اسكلابيوس)، أي الثامن، كما اصطلح الباحثون على فهم الاسم. وهذا كان إله الشفاء؛ وله معبد ومركز استشفاء هام على ضفاف نهر «الأولي» شمالي مدينة صيدا.

هنا نُرجح أن اقتران صديق كان بالإلاهة «تانيت» اللبنانية؛ حيث وردت صفة للإلاهة تانيت في قرطاجة باسم «تانيت بلبنان» (ت ن ت. ب ل ب ن ن).[٥٩]

اسكلابيوس إنسان فانٍ، حسب الإلياذة، وله أبناء يتعاطون مهنة الطب مثله، أحدهم يُدعى ماخيون (٢:٧٣١). ويورد بوزانياس اسماً لحفيدٍ له يُدعى اليكسانور ابن ماخيون (٢:١١، ٦) في كورنثيا. وتدّعي عدة مدن أنه من أبنائها. وله معبد في بلدة «تيثوريا»، حيث يلقب هناك «أرخي غيت»، أي المؤسس الأول. كما يوجد معبد للإلاهة «إيزيس» غير بعيد عنه؛ وهو أقدس معابدها في بلاد الإغريق، ولا يُسمح بالدخول إليه إلاّ للذين يرونها في أحلامهم. وهم يقيمون لها عيداً مرتين في السنة، مرة في الربيع وأُخرى في الخريف (١٠:٣٢، ٨ و٩). لا علاقة لاسم اسكلابيوس باللغة اليونانية. ونجد كلمة «صقلاب» من أوابد اللغة العربية، وهي حسب «تاج العروس» تعني الإنسان الكريم والنبيل من الرجال. وحسب سترابو هو مولود في «مسينيا» (١٤:١، ٣٩).

له في إبيدورس في كورنثيا وقف، داخله تمثال من عاجٍ، يصوره جالساً على عرش، يحمل عصا بيده فوق رأس أفعى، بينما ينام كلب قربه. وقربه بناء مستدير من حجر، داخله صورة للإله «إيروس»، وقد تخلى عن قوسه وسهامه وحمل قيثارة بديلاً منها. وفي داخل الحرم حجارة، محفور عليها باللغة الدورية أسماء المرضى الذين شفاهم وطرائق شفائهم، وهم من الرجال والنساء (بوزانياس ٢:٢٧، ٢).

على قاعدة عرش التمثال، توجد رسوم لمصارعة البطل «بلّورفون»، مع الوحش الخرافي «الخميرا». ومثل هذه الرسوم لمصارعة البطل مع الوحش، هي شرقية كنعانية وبابلية، إذ الحيوان هو «لويتان» في نصوص أوغاريت، وهو تنين قدموس. ويرى

«أستور» أن اسم بلورفون ليس سوى تحريف لفظي لكلمة «بعل رفائي»[٦٠]؛ مثل، دانيال رفائي، وصيد رفائي، وما شابه...

مع بلورفون يوجد رسم للبطل «برسيوس»، يحمل رأس «ميدوزا» (٢:٢٧، ٢). وبرسيوس هذا هو حفيد دناوس وعباس، حسب بوزانياس (٢:١٦، ١)، وأبولودورس (٢:٢، ١).

ويرى الباحث «أستور» أن موضوع آلهة الشفاء، بمن فيهم اسكلابيوس، هو شرقي، وصل إلى بلاد الإغريق بطريق الكنعانيين، إن لم يكن منهم مباشرة. وشعار الحية حول عصا، هو شعار فينيقي على النقود.[٦١]

٢٦- «ولد لكرونوس في إقليم «بيريه» ثلاثة أولاد، الأول يُدعى كرونوس مثل والده، ثم زوس بعلوس وأبولون. وفي زمنهم ظهر بونطس، وطيفون، ونيري والد بونتس وابن بعلوس.»

علينا التذكير هنا، بأن النص مجموع من سجلات معابد مختلفة، كما ورد ذكر ذلك بقلم فيلون الجبيلي. وهذا يعني أن سانخونياتن كان يؤالف بين نظريات مختلفة للتكوين، افترض أحد الباحثين أنها ثمانية بالعدد، كما ذكر الأب لاغرنج.[٦٢]

وهنا، لا بد من مداخلة جوهرية في موضوع كرونوس، وعلاقته بالإغريق. فالمؤرخون يجمعون على أنه موجود قبل الهلينيين. وإذا حذفنا اللاحقة «إس» من اسمه، يصبح «قرون». وقد سبق للنص وذكره بأنه هو ذاته «أل» أو «عل» أي العالي. وكلمة «قرن» تعني حتى اليوم في اللغة العربية الطرف الحاد

والعالي من كل شيء، حيث أعالي المرتفعات في لبنان تُدعى «قرنة» حتى اليوم. وهكذا، نحن نرجح أن الاسم له هذه الدلالة، وهو إنما دخل إلى بلاد الإغريق مع غيره من الأسماء، مع هجرة كنعانية غامضة سابقة لهجرة قدموس ودناوس، اللتين يشير إليهما المؤرخون القدماء.

يبدو أن دخول الحرف اليوناني إلى الأسماء، وغياب الحرف الصوتي من الكتابات الكنعانية، خلقا مجالاً واسعاً لتحريف الكثير من الأسماء؛ فغدت الأسماء بعيدة عن الأصل والمدلول غالباً. وهنا نلفت إلى أن الصفة التي تعطى للإله «إل» في أوغاريت، هي «أ ب. س ن م»، أي «أبو الأسنمة»، أي الأعالي. ونفترض أن كلمة «قرن»، إنما تحمل هذا المعنى، وهي مرادفة صالحة للاستعمال. وما سمي «قرناً» للمئة من السنوات، إنما يعني الحد الأعلى للعد، حيث يعود بعدها إلى الأول.

في النص عملية توفيق، وكأن كرونوس شخص هاجر إلى منطقة جديدة بدون عائلته، وقام بتأسيس عائلة جديدة في مقره الجديد «بيريه».

وعند البحث عن موضع «البيريه» المذكورة، يتساوى نصيب أية منطقة تحمل هذا الاسم في بلاد الإغريق مع أي موقع في بلاد كنعان، سواء كان هذا الموقع قرب حلب أم في فلسطين؛ حيث توجد منطقة واسعة بهذا الاسم، أم بعد الفرات إلى الشرق، كما يرى البعض الذين اعتمدوا على لفظة «بيريا» لدى سترابو (١٦:١، ٢٨).

إن التفسير المعقول لهذه السلالة الجديدة، هو في انتشار العقيدة بكرونوس، في مناطق جديدة، فاعتبر ذلك سلالة جديدة.

وزوس بعلوس ليس سوى بعل تلك المناطق، ووضع كلمة زوس قبله، إنما اصطلاح لاهوتي يماثل ما استعمله هيرودت عندما شاء الحديث عن معبد «بل» البابلي، فقال عنه «زوس البابلي»، أي الإله الأعلى في بابل.

كما نشير هنا، إلى أن كلمة «بعل» كانت تطلق تسمية لأشخاص. وقد كان اسم ملك صور في زمن أسرحدون الأشوري «بعلو»، كما كان أحد ملوك «ساردیا» يُدعى «بعلوس»، حسب هيرودت (٧:١). وفي أخبار الأيام الأول العبري نقرأ أسماء أبناء بعوئيل، كالتالي: «...عبدون، ثم صور وقيس وبعل ونير وناداب» (٣٦:٩). وقد نسب فرجيل لأحد ملوك صور فتح قبرص وكان اسمه «بعل» (٦٤٢:١).

وهكذا تكون لفظة زوس وضعت للتمييز فقط.

أبولون، وهو إله الفنون والتنبؤ لدى الإغريق، يُعتبر رمزاً للحضارة الغربية عند بعض مفكري الغرب، وليس ما يثبت أنه من أصل إغريقي، برغم احترام الإغريق الكبير له. ولعله «بعل زبول»، الذي اتهم الفريسيون يسوع بصنع المعجزات باسمه، كما في إنجيل متى (٢٤:١٢)، أو «هبل» في الجاهلية العربية. ثم ولادته من الإلاهة «لاتون»، كما يذكر أبولودورس (٤:١، ١). وكلمة «لاتون»، إنما هي تحريف للفظة الإلاهة، أي «اللات». ويرى الباحث «غريفس» في موسوعته أنه ابن «لات»، إلاهة الخصب في فلسطين (٢:١٤)، أي أورانيا أليلات التي ذكرها هيرودت بين معبودات العرب (١١:٣)، وكانت تعبد بأشكال مختلفة، منها الفئران، كما في صموئيل الأولى (٤:٦)، حيث ذكر فئراناً من

ذهب. وقد ذكر بوزانياس وجود معبد في مدينة الإسكندرية على اسم «سمنثيان أبولو»، أي «أبولو الفأر». ويذكر مترجم بوزانياس في الحاشية «٧٩»، أن فئران أبولو هذه تنكشف للبعثات الأثرية نماذج برونزية منها بين وقت وآخر.

كما هناك صفة لأبولوهي «قرنيان»، يذكرها بوزانياس (١٠:٢، ٢). ونرى هذه الصفة شرقية كنعانية من لفظة «قرنة»، تماماً مثل عشتروت قرنايم في سِفر التكوين (٥:١٤)، وتعني المرتفعات.

ينسب أبولودورس ابناً متنبئاً لأبولو يُدعى «موبسوس»، من زوجته «مانتو»، وهي ابنة المتنبئ «تريزياس» (الملحق ٣:٦). وموبسوس هذا كان الإغريق يعتبرونه يونانياً استعمر كيليكيا، لكن نصوص «عزتودع» من «أضنه» كشفت أنه مؤسس البيت المالك للدانيين الكنعانيين هناك.[٦٣]

وفي طيبة كان لقب المعبد «اسمينيان أبولو». والرواية أنه ولد لأبولو ولدان، هما «اسمينوس» و«تنيروس»، فمنح أبولو موهبة التنبؤ لابنه تنيروس، وأسمى النهر هناك إسمينوس. وكان اسم النهر «لادن» (أبولودورس ١٠:٩، ٥).

يعلق الباحث «أستور» على التسميات، فيرى أن المعبد يوحي باسم «أشمون»، إله الشفاء لدى الفينيقيين. كما يرى أن الاسم القديم للنهر يوحي بالأفعى، رمز الشفاء.[٦٤]

ويكشف بوزانياس أن الصيدونيين كانوا يعتقدون أن أبولو هو والد اسكلابيوس (أشمون)؛ الأول يمثل الشمس، والثاني الهواء

الجيد (٧:٢٣، ٦). وهذا ينسجم مع رواية أبناء «طيبة» الإغريقية.

وبونطس الذي برز في عصرهم، هو تشخيص للبحر، وقد حملت به الأرض بدون حب، كما يقول هزيود في مولد الآلهة (١٣١). وقد ولد له ابنه البكر نيروس الذي يصفه هزيود بأنه الشريف والصادق، وهو الشيخ الذي لا يخطئ أبداً، كما هو لطيف، ويتذكر الحق ويعرف فنون الرحمة والقانون (٢٣١-٢٣٦).

هكذا يكون هزيود مخالفاً لنص سانخونياتن، بحيث جعل نيروس، أي النهر ابناً لبونتوس، بينما هنا هو أبوه وابن لبعلوس.

وفي العودة إلى نص أوغاريت نجد كلمة «يم» مرادفة لكلمة «نهر»، ويوصف نهر بكلمة «ث ف ط»، أي القاضي وهو الوصف الذي ذكره به هزيود. وكان النهر يستعمل للقضاء بين المتخاصمين، بإلقاء المتهم في النهر وفق شرائع حمورابي خلال مواد هذه الشرائع: ١٠٨ و١٣٢ و١٤٣.

هنا نلاحظ، أن النص ينحصر بما يخص المياه، وأبرز من تداولته الأساطير منها هو «نيروس»، أي النهر. وقد ذكره هوميروس في الإلياذة بوصفه «الشيخ الذي يعيش في البحر» (١:٥٥٦ و١٨:٣٨ و١٤١)، والأوديسيه (٤:٣٨٤). ولدى أبولودورس يستطيع نيراوس تغيير شكله حسب إرادته (٢:٥، ١١).

ويرى أبولونيوس روديوس، أنه يعيش في بحر «إيجيه» (٤:٧٧١)؛ وهذا البحر كان مسرحاً لسفن أوغاريت. وهو والد النيريات الخمسين اللواتي يقمن معه في أعماق البحر، حسب الإلياذة (١:٣٥٨). وأبرزهن «ثيتس» التي تقوم بدور الرسول في

رحلة الأرغو (٤:٧٧٤). ويبدو أن النيريات بنات نيراوس، هن ذاتهن الرسل المبعوثات لنهر، في نصوص أوغاريت، باسم (م ل أ ك). وهو له معبد هام في «غيثيون»، في أرض لاكونيا كما يذكر بوزانياس (٣:٢١، ٦، ٩).

وطيفون هو من العائلة المائية ذاتها، وتشخيص لنهر العاصي ومسيرته الطويلة في الأراضي السورية. والأسطورة لدى هزيود في مولد الآلهة تقول، أن الأم الأرض غضبت بعد طرد زوس لأبنائه التيتان، فأحبت «تارتاروس»، وولدت منه «طيفون» الوحش المتعدد الرؤوس القاذفة للنار (٨١٨-٨٢٨). حاربه زوس قرب جبل كاسيوس (الأقرع)، وطال الصراع بينهما، فاستخدم زوس صواعقه ضده، ولم يستطع التغلب عليه إلاّ عندما ألقى جبل «إتنا» في صقلية فوقه (أبولودورس ٦:١، ٣).

وقد ربط الكتاب الكلاسيكيون بين أسطورة طيفون ومنطقة كيليكيا. وكان هوميروس قد جعل الأرض للأريمو في الإلياذة (٢:٧٨٣). وفسر سترابو التسمية بأنها للآراميين (٤:١٣، ٦)، أي للساميين. وهو يرى أن الاسم لنهر العاصي، كان في الأساس طيفون، ثم تحول إلى «أورونت»، باسم الشخص الذي بنى جسراً فوقه. وهو يرى أنه «تنين» يهرب من البرق والرعد، ويغوص تحت الأرض، فتتفجر حوله ينابيع؛ ولهذا وصف بتعدد الرؤوس (٢:١٦، ٧).

أمّا عن رواية نيران طيفون لدى أبولودورس، فهي النيران التي كانت تشتعل في الغابات المحيطة بمجرى نهر العاصي والجبال المجاورة له، فتبقى هذه النيران في الغابات الكثيفة عدة أشهر حتى يطفئها المطر والرعود المصاحبة له؛ فيمثل ذلك صراعاً مع إله البرق والرعد.

يعتقد بعض الباحثين أن كلمة «طيفون»، إنما هي كلمة «طوفان» العربية[٦٥]. وقد يكونون محقين، إذ هذا الوحش كان يشكل أخطاراً حقيقية على الحياة، عندما تفيض مياه الأنهار، وتشكّل مستنقعات واسعة، تمنع تحرك الإنسان خلالها. وهذا ما لا يزال يحدث عند فيضان أنهار، مثل: دجلة والفرات والنيل والعاصي في المنطقة. وتشبيه النهر بلوياتان، أو الحية المتلوية بسبب تعرجه، إنما هو تشبيه حي، حتى أنه أرتبط باسم النهر، كما سنرى.

لقد كان اسم نهر «اسمينوس» قرب طيبة «لادن». وهو يقع جنوب غرب «قدميا»، عاصمة قدموس. والتنين الذي قتله قدموس غدا نهراً باسم «لادن». والأفعى التي تحمي التفاحات الذهبية في «رحلة الأرغو»، تُدعى «لادن» (٤:١٣٩٤). ولكن هذه الأفعى ذاتها تدعى «نيراوس»، أي «نهر»، لدى أبولودورس (٥:٢، ١١)، والقاضي «نهر» في أوغاريت يُدعى «لاتن». وكما يرى «أستور»، هذا هو ذاته «لوياتان» العبري لدى أيوب (٤١:١)، وأشعيا (٢٧:١)[٦٦]؛ والتسمية سامية الأصل.

هنا نضيف لهذه التسميات، في لبنان نهر «اللدان»، أحد روافد الأردن، في سفح حرمون، ونهر «الليطاني» في الجنوب اللبناني.

وهنا نلاحظ، أن المجموعة المائية هذه، لم تكن في النص استمراراً لسلالة، بل هي ظهور في الزمن، أي تسميات أو تصنيفات للتمييز بينها. وإذا ابتعدت تسمية «بونطس» عن لغة الساميين، فإنها لم تبتعد عن اللهجة العامية، إذ يعرف العامة رسو السفينة في الميناء، بأنه تبنيط، فيقولون «بنّط» المركب. بينما طيفون ونهر، هما لفظتان ساميتان. وكذلك هو المرادف «لتن».

٢٧- «ومن بونطس ولد صيدون، الذي بامتياز صوته أوجد الأغنية الأولى، وبوزيدون. ولدمارو ولد ملكرت الذي يُدعى هرقل.»

يجعل صيدون ابناً لبونطس، أي البحر، بينما هو في سِفر التكوين العبري، الابن البكر لكنعان (١٠:١٥). ولكن في رواية عربية ينقلها القلقشندي، أنه «ابن صدقا ابن كنعان ابن حام» (جـ٤:ص١١١). وهذا يعني أن الرواية العبرية لنسب صيدون ليست وحدها في التداول. وحين نأخذ بحرفية النص، نجد أنه من سلالة نيراوس، أي القاضي نهر، كما هو في نص أوغاريت. فهل يكون النص وحد بين صفة الاستقامة والعدل لدى «نهر» والاستقامة لدى «صديق» والد الكبيروس...؟ إنه يكون بذلك جعل صيدون أحد «الكبيروس» أبناء صديق.

ولكن في الوقت ذاته، لا نستبعد أن يكون في الاسم اجتهاد لغوي شعبي للاسم المرادف لبونطس، وهو «بوزيدون» الذي نجد أثراً لاسمه في ميناء إلى الجنوب من «صيدا»، يحمل اسم «بوزيد»، مع أن النص يجعل «بوزيدون» ابناً لصيدون.

أمّا ذكر صيدون بأنه منشد أغانٍ بصوته الجميل، فلم يرد إلاّ في هذا النص. ومن غير المقبول المرور بهذه الملاحظة، وكأنها حشو أو سهو، فهي على الأرجح إثبات على قدم النص وأصالته. فكلمة صيدون كانت تُطلق على جميع سكان جنوب لبنان، حتى أن هوميرس كان يطلقها على الفينيقيين بوجه عام. نجدها كذلك، في أسفار العهد القديم العبري. وعندما نقرا كتاب المزامير، نجد الكثير من أناشيده تغنياً بلبنان وبعله ويومياته.

فهل تكون الإشارة إلى صوت الصيدوني هي إشارة إلى منشدي هذه الأناشيد السابقة لظهور العبريين؟

إن النص يؤكد أنها أولى أغنيات الإنسان. ونعتبر هنا أن سانخونياتن كشف أصول الترنيمات الكنعانية المجموعة مع التراث العبري.

وإذ نصل إلى بوزيدون، نجده إله البحار والزلازل في التراث الإغريقي. وهو ابن كرونوس من رحيَّه، وأخواه هما: زوس إله الفضاء، وهادس إله الموتى، حسب الإلياذة (١٥:١٨٧)، والأوديسية (٥:٣٧١). وقد كنى عنه هزيود في مولد الآلهة بوصفه مزلزل الأرض (٤٥٨).

ووفق الإلياذة، بنى بوزيدون أسوار «طروادة»، بطلب من «لاومدون»، ولم يوفِ بأجره (٢١:٤٤٠-٤٥٥).

وكإله للزلازل يذكر سترابو أن الرودسيين أقاموا له معبداً فوق جزيرة بركانية ظهرت في البحر قرب «تيرا» (١:٣، ٦). وينسب له بوزانياس جفاف الينابيع بعد حدوث الزلازل (٢:١٥، ٥)؛ ومن ألقابه: بوزيدون البحر والإنقاذ والخيل (٧:٢١، ٣).

تَنسب الأساطير لبوزيدون، صراعاً على البر من أجل مدنٍ وأراضٍ. وتفسير هذا، أن الشعوب التي كانت تصل في البحر إلى بلاد الإغريق، كانوا ينسبونها له. ومن هذه الصراعات، كان الصراع مع الإلاهة أثينا، التي غرست زيتونة في الأرض لإثبات ملكيتها لها. وبعد اشتداد الخلاف، عيَّن زوس حكاماً للفصل فيه، فحكموا للإلاهة «أثينا» لكونها كانت الأسبق بغرس الأرض

(أبولودورس ٣:١٤، ١ وهيرودت ٨:٥٥). ومن أجل الانتقام والثأر أغرق بوزيدون سهل «تريازيان» بفيضان من المياه جعل «أتيكا» تحت البحر، كما يقول النص. ويرى غريفس، أن اقتران اسم أثينا بالزيتونة، إنما هو إشارة إلى الأصل الإفريقي لأثينا (١٦:٤).

كما نجد الخلاف بين عناة ويم، في نصوص أوغاريت. نجد خلافاً مستمراً بين أثينا وبوزيدون. وقد تدخَّل زوس في الخلاف حول بلدة «تروزن»، فقسم البلدة بينهما، وغدت تتعبد لبوزيدون وأثينا معاً، حسب بوزانياس (٢:٣٠، ٦).

كما يرد ذكر خلاف بين بوزيدون والشمس (هيليوس)، حول كورنثيا، فحكم «برياروس» بأن أعطى الخليج لبوزيدون، والقمة فوق المدينة لهيليوس، حسب بوزانياس (٢:١، ٦).

هكذا نجد بوزيدون دائماً تشخيصاً للبحر ونشاطه؛ حتى أن الشاعر الإغريقي «ننوس» تخيل صراع بوزيدون مع ديونيسوس لكسب مدينة بيروت، التي صورها كفتاة جميلة، يتصارع عاشقان لكسب ودها. وقد تخلّى عنها ديونيسوس لغريمه، مشترطاً عليه التوقف عن زلزلتها. والشاعر كرَّس ثلاثة فصول لها في مجموعته «الديونيزياكا».

إن شخصية بوزيدون ترتبط بالبحر. وبناؤه لأسوار «طروادة»، يعني أنه، مع أتباعه، ليسوا من الإغريق.

ويعود للبروز اسم «دمارون» معنا، حيث يكون أباً لملكارت (هرقل)، سيد مدينة صور. وهنا، ترجح لدينا «أمورية» هذه الشخصية. فقد كان الأموريون مقيمين في الداخل في زمن

أبـرام (تكويـن ٧:١٤). وكـانوا يوصفـون بـالعنفوان، حسـب «عـاموس»: «الأمـوري الـذي قامتـه مثـل قامـة الأرز، وهـو قـوي كـالبلوط» (٩:٢). وعـاموس هنـا كـان يشـير إلـى شـعب منقـرض. فهل يكون هرقـل صـور وريـث سـمعة هـذا الشـعب...؟!

إن اسـم ملكـارت يعنـي «ملـك القريـة»؛ وهـو صفـة وليـس علماً. ولكـن هـذه الصفة، تحولت إلى العلمية على لسـان الشـعوب غير السـامية، فـي جـزر البحـر المتوسـط. فكمـا يـرى البـاحث «غريفـس» فـي موسـوعته الميثولوجيـة (٢:١٥٦)، ملكـارت هـذا هـو ذاتـه «ملكيـرت» الكريتـي، الـذي يشـرف علـى الألعـاب «الأسـتمية» فـي كورنثيـا. ويلقـب هنـا «بليمـون»، حسـب بوزانيـاس (١:٤٤، ١١). كمـا هـو ذاتـه هرقـل الفينيقـي و«مولـوخ» الـذي كـان الكنعـانيون يحرقـون أطفـالهم تقدمـة لـه (لاويـون ٢١:١٨ و٢:٢٠ والملـوك الأول ٧:١١ وأرميـا ٣٥:٣٢).

ويـرى «أسـتور» أن لقـب «بـاليمون»، إنمـا هـو تحريـف لاسـم «بعـل هـامون»، الـذي اشتهر فـي قرطاجة، بينمـا هـو موجـود فـي صـور فـي الأصـل، وقـد ذكـره «نشـيد الأنشـاد» عندمـا ذكـر وجـود كـرم لسـليمان فـي بعـل هـامون (١١:٨).

تـروي الميثولوجيـا الإغريقيـة، أن أُمـه «إينـو» ألقـت بنفسـها فـي البحـر مـع ابنهـا الطفـل ملكيـرت، لتنقـذه مـن جنـون والـده «أتمـا»، فحملـه دلفيـن إلـى الشـاطئ (بوزانيـاس ١:٤٤، ١١ و١:٢، ٣ وأبولـودورس ٩:١، ١). ولا يبـدو اسـم «أتمـا» غريبـاً عـن منطقـة صـور. فهنـاك خربـة أثريـة هامـة فـوق «وادي العيـون» جنوبـي صـور، تُدعـى اليـوم «خربـة عتمـة». ونسـب ملكـارت لدمـارو ابـن أورانـوس،

ثـم لمدينـة صـور، إنمـا نفترض أنـه علاقـة جغرافيـة أساسـية بيـن منطقـة أورانيـا (حـوران) والأموريـين والمدينـة السـاحلية الشـهيرة.

ويـرى البـاحث «أسـتور»، أن ملكـرت دخـل بـاكراً إلـى بـلاد الإغريـق مـع قدمـوس ودنـاوس؛ ولهـذا توجـد لـه معـابد كثيـرة فيهـا[٦٧]. ويخبرنـا بوزانيـاس أن معبـد ملكـرت فـي خليـج كورنثيـا يوجـد علـى الشـاطئ، حيـث وجـده «سـيزيفوس» ميتـاً ودفنـه، وأقـام الألعـاب «الآسـتمية» علـى شـرفه. وقـرب المعبـد شـجرة صنوبـر موقوفـة لـه (١:٢، ٣). وتجسّـد الميـت بشـجرة صنوبـر هـو، كمـا نعلـم، عقيـدة كنعانية، تمثلهـا قصـة «أوزيريـس» علـى شـاطئ جبيـل.

وجـد تمثـال للإلـه «ملكـرت» فـي منطقـة حلـب. وهـو مقـدّم مـن «بارهـدد» الآرامـي فـي القـرن التاسـع قبـل الميـلاد. وهـو أقـدم ذكـر لاسـمه فـي الشـرق.[٦٨]

يذكـر لنـا ديـودورس، أن القرطـاجيين كـانوا يقدمـون تقدمـة سنوية لمعبـد ملكـرت فـي صـور، منـذ تأسـيس مدينتهـم (٦٥:٢٠، ١). وهـذه التقدمـة الضريبـة كـانت تسـاوي العشـر مـن مداخيلهـم، حسـب «بوليبيـوس» (١٢:٣١)، و«أريـان» (٢٤:٢).

كانت ألعـاب دوريـة كـل خمـس سـنوات تقـام علـى شـرف هـذا الإلـه فـي مدينـة صـور، وتقـدم لـه ذبـائح وتقدمـات ثمينـة، كمـا يذكـر سـفر المكـابيين الثـاني (٤:١٨-٢٠). وكـانت الأمـوال المجموعـة تستخدم لصنـع مركبـات حربيـة كمـا يفيـد النـص.

ولعـل أقـدم معبـد لـه فـي الغـرب، كـان معبـد مدينـة قـادش، التـي أنشـأها الصوريـون فـي أواخـر القـرن الثـاني عشـر قبـل الميـلاد. وقـد

عُرف باسم «هرقل القادشي». وينقل سترابو عن «بوزيدونيوس» أن المعبد أنشئ مع المدينة (٣:٥، ٥).

لم يرد ذكر لملكرت قبل القرن العاشر قبل الميلاد في مدينة صور، حين قام حيرام بتجديد بناء المعبد، وإقامة عيد للمناسبة بعنوان «يقظة هرقل» في شهر شباط، كما ينقل المؤرخ جوزيفس فلافيوس عن «مناندر». وهو يذكر ذلك في كتابه «الرد على أبيون» (١١٨:١). ويبدو أن حيرام أصلح تقويماً كان سارياً قبل زمنه.

دام معبد هرقل في قادش ذا حرمة كبيرة، طوال خمسة عشر قرناً. وهو مقام على جزيرة تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن قادش. ويذكر «فيلوستراتس» أنه كان لمعبد هرقل المصري عمودان من البرونز، ولهرقل الطيبي عمود من حجر، محفورة عليه صورة «الهيدرا» الأسطورية، وأفراس «ديوميد»، وأعمال هرقل المشهورة الاثنا عشر، إلى جانب زيتونة «بغماليون» الذهبية، وهي مصنوعة بطريقة فنية متقنة، وحبات الزيتون عليها من الزمرد.[٦٩]

يرى سترابو أن تسمية أعمدة هرقل للمضيق البحري هي لأعمدة البرونز في المعبد (٣:٥، ٥).

بينما نجد النصوص المنسوبة لملكرت-هرقل في صور تنطلق من كونه إلهاً مطلقاً، له عيد لقيامته، نجد هرقل القادشي أقرب إلى نص سانخونياتن الذي بين أيدينا، وهو بطل إنساني مؤله، حتى أن المؤرخ الروماني «سلوست» يذكر أن الأفريقيين القدماء كانوا يعتقدون أن هرقل مات في أسبانيا، وكان على راس جيش من جنسيات مختلفة (١٨:٤)، كما يذكر أنه أسس مدينة «قفصة» في المغرب (٨٩:١٠).

هذا يعني لنا، أن بطلاً مغامراً من الكنعانيين أو الأموريين يحمل شعار ملكرت جرى توحيده معه. وذلك في فترة غامضة من تاريخ مدينة صور، قبل القرن العاشر قبل الميلاد، وهي الفترة التي كانت صور تنشر مستعمراتها فيها.

يرى الباحث «غارسيا بليدو»، أن وصف هرقل بالمصري تم للاعتقاد بأن الفينيقيين جاءوا من منطقة البحر الأحمر، بينما هو الصوري ذاته. كما هو ينقل عن سيليوس إتاليكوس أن أحد أبواب معبد هرقل-ملكرت كان يحمل رسوماً لأعمال هرقل العشرة. وفسر ذلك بأنها موجودة قبل تبني الإغريق لاثني عشر عملاً لهرقل (ص ١٥٥). كما هو يرى أن الاندماج بين هرقل الفينيقي والإغريقي حدث في أواسط القرن السادس قبل الميلاد (ص ١٥٨)[٧٠]. كان المؤرخ هيرودت أقدم من بحث في عبادة هرقل، وقرر أنها الأقدم في مدينة صور. وهو يذكر أن ملك «سارديا»، هو حفيد هرقل، وهو زعيم قبيلة، وأن بين أجداد هذه القبيلة من يُدعى «بعلوس» (٧:١).

ويخبرنا بوزانياس أنه شاهد معبداً في بلدة «تسبيا»، في منطقة «بويتيا» يخص هرقل، وهو مماثل لمعبد في أيونيا، وآخر في مدينة صور؛ وهو برأيه أقدم من أيام هرقل ابن امفتريون الإغريقي (٢٧:٩، ٥).

ويوافق الباحث «أستور» مع «فكتوربيرار» على أن الاسم «تسبيا» لا علاقة له باللغة اليونانية، بل هو على اسم بلدة إيليا النبي في أرض كنعان (ص ٢١٥).

في مكان آخر يصف بوزانياس تمثال هرقل في «أريثري»

في «آخيا» بأنه مختلف، وهو أقرب إلى المصري. ويذكر أن في المعبد طوفاً خشبياً، يذكرون أن البطل المؤله جاء عليه من مدينة صور (٧:٥، ٣).

نقرأ لدى «بوليبيوس» اسم هرقل بين الآلهة التي استشهد بها «هنيبعل» في المعاهدة مع «فيليب ابن ديمتريوس» الممثل للمكدونيين، ويرد اسمه مع «أيولاوس» (٩:٧).

هنا، لا بد من اللفت إلى الرسالة التي رسمها هرقل في المجتمعات التي انتشرت قصصه فيها. وقد لخص ديودورس الصقلي هذه الرسالة، بقوله: «إنه لأمر ممتاز، كما يخيل لي، وكما يجب أن يوافق عليه جميع العقلاء وهو أن يتلقى الإنسان شهرة خالدة مقابل أعمال فانية. ففي حالة هرقل مثلاً، ومن المتفق عليه، أنه خلال جميع الزمن الذي أمضاه بين الناس، أوقف نفسه لأعمال عظيمة متواصلة، ولمواجهة أخطار من أجل منافع تفيد الجنس البشري، ولهذا اكتسب الخلود.» (٢:١، ٤). وهكذا نجد «الهرقلية» كانت مجموعة قيم ومثل، يتجه إليها الرجال الطامحون، وكأنها دين يوصل إلى البطولة والشهرة والخلود...

٢٨- «وبعد ذلك اشتبك أورانوس في صراع مع بونطس بدوره. فتخلّى عن أحلافه وتحالف مع دمارو، فمشى دمارو ضد بونطس. ولكن هذا هزمه، فنذر دمارو أضحية إذا نجا بنفسه.»

هنا قصة للصراع، تماثل قصة الصراع بين البعل ويم في نصوص أوغاريت. وإذا اعتبرنا «دمارو» هو رمز ساكني البر،

يكون بونطس رمز ساكني بلاد البحر وجزره، ويكون «حرن» أوغاريت هو ذاته أورانوس سانخونياتن، وقد دخل في الصراع بين بعل ويم.

يذكر الباحث «غراي» أن في «ديلوس» عبادة لإله يُدعى «أورونا» إلى جانب هرقل. وهو يرى أنه هو ذاته «حورون» أوغاريت، الذي عُرف في مصر بصورة صقر ضخم يحمي رعمسيس الثاني، الذي كان صبياً يمص إصبعه. وقد كتب على قاعدة التمثال «محبوب حورون» (ص ٢٧). كما قد ورد اسمه كذلك مع رشف وعناة الكنعانيين.

كما هو يفترض أن الصوريين نقلوا عبادته معهم إلى ديلوس، فكان بحارتهم يقدمون تقدمات لهذين الإلهين هناك، وهما خاصان بيمنيا في فلسطين، التي يرجح أنها كانت خاضعة للصوريين في العهد الفارسي[٧١]. وكي لا يحدث التباس بين حورون وحورس، لاحظ الباحث «أولبرايت» ذكرهما جنباً إلى جنب. كما يذكر أن اسم حورون ورد مكتوباً في بردية لرقى أربع مرات، في عهد الأسرة التاسعة عشرة، أي أن ذكره تكرر أكثر من أي إله سامي آخر. وهو يرجح أن اسم «حوران» هو نسبة لهذا الإله، حيث كانت فيها مدينة تُدعى «بيت حوران»، في زمن شلمناصر الثالث سنة ٨٤١ ق.م. كما ورد ذكرها مرتين في نصوص «أشوربانيبال» مع لاحقة لغوية تعني «مدينة»[٧٢]. وقد ورد اسم مدينة «حورانن» مرتين في الأسطر الأخيرة من نص «ميشع» ملك مؤاب.[٧٣]

ويوصف حورون بالراعي غالباً في النصوص التي ورد فيها، وفي الرقية للذئب دعاء، يقول: «عسى حورون يهشم لك أنيابك».

والسؤال هنا حول النص: هل هو تسجيل لشعوب جاءت من البحر وتغلبت على دمارو وأورانوس؟

إن السرد، برغم ما هو فيه من إيجاز، يوحي بهذا الواقع. ويوحي بأن أورانوس كان شخصاً اغتصب ابنه السلطة منه. وهذا ما نفترضه خلال متابعة النص الذي يقول:

٢٩- «وفي السنة الثانية والثلاثين من تسلمه السلطة، قام إيلوس الذي هو كرونوس بنصب كمين لوالده أورانوس في طريق وسط الأراضي، وسلبه رجولته باجتثاث أعضائه الجنسية قرب ينابيع وأنهار. وفي هذا المكان تم تأليه أورانوس، حيث لفظ أنفاسه؛ وقد قطرت دماء أعضائه في الينابيع وفوق تيار الأنهار. ولا يزال المكان معروفاً حتى اليوم.»

نرى في التوكيد على عدد السنوات اصطلاحاً زمنياً غامضاً، ويرجح أنه المطلوب لاكتمال النضج. أمّا الصراع على السلطة بين الابن وأبيه فهو أمر مألوف في كل زمن. وأبرز إشارة وردت في ملحمة «كرت» الأوغاريتية، حيث يثور ابنه «يصب» ضد والده كرت، ويعيره بتقصيره في قضاء حق الأرملة، وصيانة مال اليتيم. وقبل أن ينقطع النص نقرأ استغاثة الأب بالإله «حرن» للعنته من أجل عقوقه.

أمّا سلب الحاكم رجولته لإثبات عدم حقه في الملك، فيبدو أنه يتفق مع عقيدة سامية قديمة، تنص على أن الملك يفقد سلطانه عندما يفقد رجولته وقواه الجنسية. ويرجح أن هذه العقيدة

تسببت بثورة «أدونيا» على أبيه داود، بعد أن شاخ، حيث يقول النص في الملوك الأول، أنهم أحضروا لداود فتاة جميلة جداً، هي «أبيشج الشونمية»، «فكانت حاضنة الملك، وكانت تخدمه، ولكن الملك لم يعرفها.» (١:١-٥).

هكذا، لا تكون عملية كرونوس للتمثيل بوالده، إنما لسلب الوالد شرعية الحكم الذي كان لا يزال يسعى إليه، ويعقد أحلافاً لأجله. وقد ذكر هزيود هذه الحادثة في مولد الآلهة (١٩١)؛ وتداول كتاب الأساطير هذه القصة، فوردت لدى أبولودورس (١:١، ٤)، وبوزانياس (٢٣:٧، ٤). وقد استنكر أفلاطون ذكر هذه القصة، وطالب بحذفها من التداول في كتابه الجمهورية (٣٧٧:٢)، فكان رأيه السابقة الأولى للتدخل في تسجيل التاريخ...!

أمّا تحديد المكان قرب ينابيع وأنهار داخل الأراضي، فهو نفي لوجود شاطئ وبحر في المكان، كما هو الوضع في الروايات الإغريقية، التي تتفق على أن أعضاء أورانوس أُلقيت في البحر.

تتجه الأنظار إلى أمكنة الينابيع والأنهار، حيث توجد المعابد القديمة بكثرة، وحيث لا بد من وجود معبد لأورانوس. والمنطقة هي حول جبل حرمون الذي وصف منذ القديم بالقداسة؛ كما يفيد اسمه هذا المدلول.

والقول: «أن المكان لا يزال معروفاً حتى أيامنا»، لا يتفق مع أي موقع كاتفاقه مع جبل حرمون ومعابده التي لم تحدد أسماء معظمها، وهي بقيت على حرمتها حتى العهد المسيحي، إن لم يكن بعضها لا يزال يتمتع بهذه الحرمة حتى أيامنا الحاضرة.

٣٠- «تلك هي إذن قصة كرونوس، والملامح النبيلة التي يمثلها هذا الوجود الذي يمدحه الإغريق المعاصرون لكرونوس، وهم، كما يقال، كانوا السلالة الأولى، السلالة الذهبية للناس الفانين. هذا التقدير من القدماء، هو ما يثير الحسد. ويضيف المؤلف بعد أقوال أُخرى:»

هذا النص هو بقلم أوزيب، للسخرية من الروايات الأسطورية، حول الصراع بين الآلهة، ليس من خلال ما بين يديه، بل من خلال الروايات الإغريقية. فهذه تُسمي عصر سيادة كرونوس بالعصر الذهبي، كما وصفه هزيود، في قصيدته «الأعمال والأيام»، حيث يقول:

«الآلهة الذين يعيشون فوق جبل أولمبوس صاغوا في البدء سلالة الناس الفانين.
هؤلاء عاشوا في مملكة كرونوس، ملك السماء.
و كالآلهة كانوا يعيشون بقلوب سعيدة لا يؤذيها العمل والحزن.
لم يكن لأعراض الشيخوخة ظهور، ولكن كانت الأعضاء ممتلئة بحيوية بعيدة عن كل مرض.
لقد كانوا يحتفلون بسعادة.
يأتيهم الموت، و كأنه النوم، وجميع الأشياء الجيدة كانت لهم.
والأرض الخصبة تعطي ثمارها بدون سؤال.
سرورهم هو بالسلام. يعيشون كما يريدون. أثرياء بقطعانهم محبوبون من الآلهة المباركين.»

(١٢٠-١٣٠)

ليت أوزيب ذكر شيئاً من الأشياء الكثيرة الأُخرى، التي

أشار إليها، إذ هي ولا شك كان بإمكانها حل اللغز، لأن ما انتقده كان معروفاً بوجه عام لدى الإغريق. وسخريته من العصر الذهبي، إنما تتجه لهزيود وليس لسانخونياتن، وهو من حيث لا يقصد يشارك فيلون الجبيلي بهذه النظرة النقدية، حيث هذا انتقد الإغريق بسوء فهم النصوص، واضافة تخيلاتهم إليها. ولكنه يستأنف التلخيص واختيار النصوص المناسبة لسخريته، فينقل منها:

٣١- «عشتارتا العظيمة جداً وزوس دمارو أو هدد، ملك الآلهة كانا يحكمان هذه المنطقة بموافقة كرونوس. فوضعت عشتارتا على رأسها رمز الملكية، رأس ثور، وبينما كانت تجول في الأرض المسكونة اكتشفت نجماً شاقاً الفضاء، فالتقطته وكرسته في جزيرة صور المقدسة.»

يتحدث هنا النص عن سيادة إلهين كبيرين من آلهة الساميين على المنطقة. وقد استعمل كلمة «زوس» كصفة لتعريف دمارو، وهي هنا مرادفة لكلمة «بعل» بمدلولها اللغوي. وقد أحسن بإيراد المرادف «هدد». فهذا المرادف هو ما يؤكد شخصية دمارو الأمورية، فهدد معروف لديهم منذ نصوص حمورابي، ثم الأشوريين بعده، حيث كانوا يعتبرونه إله الطقس العنيف من فيضان وقحط. وكان له معبد هام في مدينة أشور؛ ويعتبر هناك ابناً للإله الأعلى «آنو». وهو يوصف «حاكم السماوات والأرض»، ويرسم وله قرنان، وبين القرنين نجمة، وسلاحه هو الصاعقة، ووجد تمثال له يقارب هذا الشكل في «زنجرلي»، وكان شفيعاً لملكها الكنعاني-الآرامي «بانامو».[٧٤]

ويرى «دوسو» أنه موجود في منطقة جبال لبنان من عصور ما قبل التاريخ[٧٥]. ونحن نورد هنا شهادة على وجوده وانتشار عبادته بتسميات معابده: هدد بيروت، هدد بعلبك، هدد الجبِّه. وقد تم تحريف الاسم كتابة إلى «حدث»، بينما لا يزال المسنُّون يلفظون الاسم «حدد» برغم اللافتات المكتوبة عند مداخل بلداتهم.

هنا نشير إلى أن الإله الأعلى لمدينة صور كان في المطلق دائماً، ولم تكن التسمية سوى صفة لتقريبه إلى الأذهان. وقد عبر الشاعر الإغريقي «ننوس» عن هذه الحالة في قصيدته التي وصف بها صور وإلهها الذي وصفه «استروخيتون»، أي اللابس للكواكب، فقال فيه: «... يا هرقل المتجلبب بالكواكب... عين السماوات المشعة... يدعونك البعل على الفرات وآمون في ليبيا وأبيس على النيل وكرونوس في البلاد العربية وزوس في أسيريا...»[٧٦] (٤٠:٣٦٩-٣٨٨).

وفي القول أن عشتارتا وضعت على راسها قرنين كرمز للملكية، إثبات لعلاقة النص بمنطقة صور وحوران، كما إثبات لقدم ملاحظاته. فهناك بلدة كانت باسم «عشتاروت قرنايم»، أي ذات القرون، ذكرها سِفر التكوين عند ذكره غزوة ملوك الشرق في زمن إبراهيم، حيث كان الأموريون والعماليق، وكان الرفائيون يعيشون في هذه البلدة (١٤:٥-٧).

وفي وصف عشتارتا بالعظيمة جداً، لا يتجاوز مركز هذه الإلاهة في الحضارة القديمة تحت أسماء مختلفة. فهي في حضارة الرافدين «إنانا» باللغة السومرية الأقدم، ويكتب اسمها «إيديوغرام» يقرأ بالأكادية السامية «عشتار»، بينما تبقى التسمية السومرية

معادلة في الاستعمال. وقد وصلتنا «رقية» شعبية تتضمن الاسم «العنونية»، ورمزها نجمة مثمنة، هي نجمة عشتار، أو العزى أو الزهرة، أو الاسم «دلبت»، حيث ذكرها ككوكب فقط، حسب راي «دورم» (ص ٦٨). وتوجد قرية تحمل الاسم «دلبتا» في منطقة كسروان اللبنانية.

يذكر حمورابي الأموري عشتار وهدد في مقدّمة شرائعه، واصفاً أعماله التشريعية بأنها لإرضائهما. كما في خاتمة شرائعه يستعديها باسم «إنانا» على من يمحو شرائعه، بقوله: «عسى إنانا، سيدة المعارك والحروب، التي تحمل أسلحتي، حاميتي الرحيمة، الفذّة، المعجبة بحكمي، تلعن حكمه بغضبها العظيم من قلبها الحانق، فتحول حسناته سيئات.»

كما هو لا يعدو وصف حقيقة انتشار عبادة عشتارتا، عندما يقول أنها كانت تتجول في العالم المسكون. فالنص يرى فيها إلاهة عالمية لكل الشعوب.

والنجمة، الشعار الذي تكرّس في مدينة صور، يبدو أنه أصيل في هذه المدينة منذ نشوئها. ونجده في اسم المدينة البرية التي اختفت على الشاطئ، والتي كانت تحمل اسم «أوزو»، أو «العزى». والقرينة المادية على وجود تقديس النجمة لا تزال قائمة في شكل إحدى برك راس العين، جنوبي صور، وهي كانت تخص المدينة البرية «أوزو». فحتى اليوم، نجد شكل هذه البركة مثمناً؛ وقد لاحظ ذلك معظم العلماء الذين زاروها في القرون الأخيرة، وقبل دخول إصلاحات الإسمنت الحديثة عليها.

والإشارة إلى رمز سقط من الفضاء، فتكرس على يد

عشتارت في صور، إنما يشير إلى معبد خاص قديم كان مزاراً مقدساً في صور، قبل بروز اسم ملكرت-هرقل. وهذا ما تذكره نصوص العمارنة في الرسالة «١٥٥»، حيث تذكر باسم «شال مياتي»، كما تذكره نصوص أوغاريت في ملحمة «كرت» بلفظ «أ ث ر ت. ص ر م»، أي أشيرة الصوريين.

ونعتبر أن صفة القداسة جاءت لصور من تلك الفترة الغامضة التي لم نكتشف تاريخها بعد. وقد وصفها الشاعر ملياغر بالقداسة في قبرياته رقم «٤١٨ و٤١٩».

٣٢- «عشتارتا، حسب قول الفينيقيين ليست سوى أفروديت، وكرونوس، هو أيضاً، خلال تجوله في الأرض المسكونة أعطى مملكة «أتيكا» لابنته أثينا.»

أفروديت هو الاسم الإغريقي الذي أعطاه الإغريق لعشتارتا. وقد فسر الشاعر هزيود الاسم بأنه «ابنة زبد الموج»، حيث كلمة «أفروس» تعني الزبد باليونانية. ولولادتها أسطورة تقول، بأنها ولدت من أعضاء أورانوس الجنسية، بعد أن ألقيت هذه في البحر، فأخصب منها الموج وولدت منه أفروديت (مولد الآلهة ١٨٨-٢٠٦). ولا نجد لهذه الرواية أصلاً شرقياً. وهي لدى هوميرس في الإلياذة ابنة زوس، وتوصف باللامعة (٣:٤١٣)، إشارة إلى ارتباطها بالكوكب (نجمة الصبح).

تلقب أورانيا لدى هيرودت (١:١٠٥)، ورفيقها هو إله الحب «إيروس»، حسب هزيود (مولد الآلهة ٢٠٠). ويقول بوزانياس أن الأشوريين كانوا أول من تعبد لأفروديت السماوية، ثم

أبناء شعب بافوس في قبرص، و«كيثيرا» تعلموا عبادتها من الفينيقيين (١:١٤، ٦).

ويعطي النص لكرونوس صفة العالمية، عند ذكر تجوله في العالم. وعلينا هنا أن لا ننسى الاسم المرادف لكرونوس «إيل»، فهذا عالمي الوجود منذ وروده في النصوص، وهو ليس سوى لقب التأليه لكرونوس. وبخصوص «أثينا» يجمع الباحثون على أنها كانت موجودة في بلاد الإغريق قبل الهلينيين. واسمها المنتهي بالحرف «نا» غير يوناني. وهي غالباً يكون لها شكل طائر، كما تذكر الأوديسيه (٣:٣٧١-٣٧٢). ويرجح أنها كانت مشهورة في الحضارة الكريتية والمسينية. وقد وصفت بالحكمة؛ وذكر هزيود أنها كانت مستشارة للإله زوس (مولد الآلهة ٨٨٦).

يذكر بوزانياس أن أثينا كان لها معبد وتمثال قديم من عاج في «الالكومينا»، في بويتيا (٩:٣٣، ٤). كما يذكر أن قدموس أقام لها تمثالاً في «طيبه»، وأسماها «أثينا العنقاء»، إشارة إلى الطائر الأسطوري.

أمّا دخولها إلى أفريقيا أولاً، حسب رواية البلاسجيين، فيعود إلى هجرة قديمة سابقة لهجرة دناوس وقدموس، حيث يرى «غريفس» في موسوعته، أنها حدثت حوالي ٣٥٠٠ ق.م. في العصر النيوليتي. وهذا يجعلنا نرجح أن اسمها سامي الأصل، مشتق من كلمة «وثن».

وأتيكا التي أُعطيت لأثينا هي رأس مثلث يفصله جبل «بارنس» عن بويثيا، حيث استقر فينيقيو قدموس. وتبلغ مساحته حوالي ألف ميل اشتهرت أرضه بالعنب والزيتون. وكان التعبد

الرئيسي في المنطقة للإلاهة «أثينا»، حسب بوزانياس (١:١، ٣). ويشتهر في أتيكا بطل باسم «كفالوس»، وله جزيرة باسمه تُدعى «كفالينا» (٣٧:١، ٤)، وقد اشتهر بالعفاف، وبأنه عاهد زوجته «بروكرس»، بأن لا يضع فمه على فم امرأة غيرها، حسب أوفيد في التحولات (٧:٤٠٧)، وهذا يتفق مع سيرة «ذو الكفل»، لدى العرب.

ويجعل أبولودورس من سلالة «كفالوس»: صندوقس (صديق؟) وكنيراس مؤسس بافوس في قبرص. كما يجعل أبناء كفالوس يولدون في سوريا (١٤:٣، ٣)، حيث قامت إلاهة الفجر «ايوس» بخطف كفالوس إلى هناك.

كما هناك رواية عربية تقول: «... ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه اللّه بعد أبيه رسولاً إلى أرض الروم... وكان مقيماً بالشام...»(٧٧)

ونذكر هنا أن رواية المؤرخ «مناندر»، كما نقلها جوزيفس، تقول أن حيرام ملك صور قام بحملة على الآخيين الذين تمردوا عليه، ولم يدفعوا له الضرائب، فأخضعهم من جديد لسلطانه. كما يذكر أن «إيلولاوس»، قام كذلك بحملة لتأديب الحيتيين وأعادهم إلى الخضوع(٧٨)، وذلك حدث في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، مما يعني أن قسماً من بلاد الإغريق كان خاضعاً لحكم صور. وهذا ما يساند القول أن كرونوس أعطى أتيكا لابنته أثينا.

٣٣- «عند انتشار طاعون مميت، قدّم كرونوس أضحية لوالده أورانوس، هي ابنه الوحيد، وختن نفسه وأجبر أتباعه على فعل ذلك مثله.»

يصف النص هنا طقساً كنعانياً أصيلاً، هو طقس التضحية وتعذيب الذات، أي التكفير عن الخطايا. هذا الطقس وصلنا خلال الحضارة المسيحية بالصيام والتضحية الرمزية، باسم الذبيحة الإلهية والقربان. وكذلك خلال الحضارة الإسلامية، بالأضاحي الرمزية في عيد الأضحى، وبالصيام والختان. وأقدم نص مكتوب وصلنا عن هذا الطقس، كان خلال الكتابات العبرية: «فأخذ إبراهيم إسمعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته وكل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لهم غرلتهم.» (تكوين ١٧:٢٣).

أمّا عن التضحية بالأبناء، فنقرأ: «ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه.» (تكوين ٢٢:١٠). وهذا الطقس حدث في بلاد الكنعانيين، ولم يكن مألوفاً لإبراهيم قبل إقامته بينهم.

وقد تكرر ذكر هذا الطقس في النصوص العبرية، فنقرأ عن ملك مؤاب عند اشتداد الحصار الإسرائيلي عليه: «فأخذ ابنه البكر الذي كان ملكاً عوضاً عنه وأصعده محرقة على السور، فكان غيظ عظيم على إسرائيل فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم.» (الملوك الثاني ٣:٢٧).

وقد حافظ القرطاجيون الكنعانيون على هذ الطقس، حيث يخبرنا ديودورس الصقلي، أنه عندما حاصر «أغاتوكل الصقلي» قرطاجة، ضحوا بمئتي طفل من أبناء نبلائهم، وبعضهم ضحى بنفسه بملء إرادته، فكان مجموع الأضحيات لا يقل عن ثلاثمئة (١٤:٢٠، ٢-٦).

هنا نلفت إلى أن هذه الأضحيات كانت عقاباً للنفس، وهي تختلف عن التضحية بالأعداء أو بالغرباء، كما تذكر الإلياذة عندما

ضحى «أخيلس»، باثني عشر صبياً من أبناء شجعان الطرواديين، انتقاماً لموت صديقه «بتروكلس» (١٧٥:٢٣).

٣٤- «وبعد وقت قليل كرّس ابنه الذي ولد له من «رحيّه»، إلهاً بعد موته باسم «موت». وهو الاسم الذي يدعو به الفينيقيون «ثناتوس» و«بلوتون».»

نذكر هنا بأن «موت» في مطلع التكوين، كان بشكل بيضة، ومنه ولدت الشمس والقمر والنجوم. هذا يعني أن موت لم يكن شراً للإنسان، كما لم يكن نهاية، بل بداية وجود إلهي في الذهن الكنعاني، أو السامي بوجه عام. والأنموذج نجده بعقائد البعل وتموز وأدونيس، وهو، كما نجده في نصوص أوغاريت، كانت له سلطة في مجمع الآلهة هناك. وهذا ما يشير النص إلى حرمته وألوهيته هنا، وتعريفه من قبل فيلون، أو أوزيب باليونانية واللاتينية، لا يغير شيئاً في مدلوله الأصيل، كوجود روحي في الذهن.

٣٥- «وبعد ذلك أعطى كرونوس مدينة جبيل للإلاهة «بعلتيس» التي تدعى، في الوقت ذاته «ديوني»، وأعطى بيروت لبوزيدون وللكبيرس الفلاحين والصيادين الذين كرسوا في بيروت بقايا «بونطس».»

البعلة هي الإلاهة الأساسية في جبيل، وفق أقدم النصوص الفرعونية، التي توحدها مع الإلاهة «حتحور»، بصفتها سيدة جبيل. وبينما يجعل النص اسم ديوني من أسماء البعلة، نجد ديوني في

الإلياذة والدة لأفروديت، وقرينة لزوس (٣٧١:٥)؛ ولعل التسمية ليست سوى الترجمة اليونانية لكلمة «إلاهة»، أي البعلة.

وفق النص، كانت بيروت زوجة لعليون في منطقة جبيل، قبل أن يطلق اسمها على المدينة. وقد اعتبرها الشاعر «ننوس» في ملحمته، ابنة لأفروديت. وإعطاء المدينة هنا لبوزيدون، إنما هو إقرار بالدور البحري للمدينة. وهذا ما بنى الشاعر ننوس ملحمته عليه؛ إذ تخيل صراعاً على المدينة، كفتاة، بين إله البر والكروم ديونيسوس، وإله البحر بوزيدون. وقد حصل عليها هذا الأخير بقرار من الإله زوس، وليس بسبب تغلبه في الحرب. والكبيروس والفلاحون، إنما هي إشارة إلى عمل سكان بيروت بالفلاحة وصيد السمك، وهم أتباع بوزيدون الذين كرسوا بقايا بونطس فيها، أي البحر ذاته. وذكر الكبيروس، أي الكبار فيها، إنما يعني تعدد مقدسات هذه المدينة واجتماع كبار الآلهة فيها. وقد وجد رسم لمجموعة من هؤلاء في وضع استرخاء تستمع لحديث ما، ربما هو رواية التكوين.

وكما يقول ننوس، منح بوزيدون بيروت الازدهار والحب، والتعهد بانتصار أهلها في كل معركة بحرية يخوضونها (ديونيزياك ٣٩٦:٤٣). وكان ذلك لشكرهم على مساندته في صراعه.

أمّا الكبيروس، وقد مر شرحهم في حاشية الفقرة «١٤»، فنشير هنا إلى انتقال تقاليدهم مع الكنعانيين إلى «بويتيا»، فاشتهرت إحداهن بأنها «واهبة للشرائع»، وكان لها معبد في بيت قدموس وعائلته، كما يخبرنا بوزانياس (٩:١٦، ٣)، واسمها «ديمتر».

وهذا المؤرخ يذكر أن هناك غابة موقوفة على اسم «ديمتر الكبيري». وعلى بعد ميل واحد منها، يوجد معبد للكبيروس جميعاً (٩:٢٥، ٤ و٥).

يرى هيرودت، أن أبناء « ساموتراس»، تعلموا طقوس عبادة الكبيروس من البلاسجيين (٢:٥٢). وهؤلاء، على ما يبدو، كانوا هجرة قديمة إلى بلاد الإغريق جاءت من بلاد كنعان.

٣٦- **«وقبل هذه الحوادث قام «طاوتس» الذي كان رسم صورة الآلهة الذين عاشوا معه، كرونوس وداغون والآخرين، رسم الأشكال المقدسة للحروف. وتخيل من أجل كرونوس كرموز للملكية، عيوناً بعدد أربع على الجزء الداخلي والجزء الخارجي للجسد، بحيث تكون اثنتان يقظتين واثنتان مغمضتين بهدوء، وعلى الكتفين أربعة أجنحة، اثنان منها يبدوان منتشرين واثنان مطويين.»**

طاوتس كما ذكرنا، هو الحكيم، مستشار الآلهة بأسمائه المختلفة، كما ذكرنا ذلك في شرح الفقرة «١٤». وهو تنسب له جميع الإبداعات الإنسانية. ولا يبدو من الصدفة بروز كرونوس وداغون على يد طاوتس. فالإله الأكثر تدخلاً في يوميات الإيبلاويين الكنعانيين، كان داغون، ثم يأتي إيل (كرونوس). وقد ورد طاوتس باسم ولقب «طاوستا إيليم» هناك، أي طاغوت الآلهة.

أمّا السمات المقدسة للحروف، فهي كانت أرقاماً ترمز للآلهة. وقد وصلنا من أرض الرافدين الإصطلاحات الرقمية لعدد من الآلهة، هي: الرقم الأعلى للإله الأعظم «آن» =٦٠، ثم إنليل

=٥٠، إيا =٤٠، القمر =٣٠، الشمس =٢٠، عشتار =١٥[٧٩].

كما في هذا المجال، نشير إلى العلاقة بين الحروف والأرقام المعادلة لها في حساب «الجمَّل» الذي وصل إلى العربية خلال الترتيب الأبجدي السامي القديم (أبجد، هوز، حطي، كلمن ...).

كما في الوقت ذاته، نجد في النص إشارة لاستعمال صورة للحرف الأبجدي، لم تكن موجودة في التصويرية الفرعونية، أو المقطعية السومرية البابلية.

وغير هذا الافتراض للحروف الرموز، نجد في جميع الحضارات القديمة رهبة أمام الكلمة المكتوبة، إن لم نقل تقديساً. وهذا يتحلّى بالإيمان بسلطة الرقى والتعاويذ في المصير الإنساني.

أمّا رمز الملكية، فهو إبداع إنساني، كان يلجأ إليه الفنانون القدماء للتعبير عن حكمتهم. وأول ذِكر للأجنحة والعيون ورد في قصة الخلق البابلية العائدة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، حين وصف ماردوخ بأنه: «له عيون أربع وآذان أربع، وعندما يحرك شفتيه تنطلق النار منهما».[٨٠]

والوصف الكنعاني لدى سانخونياتن يقارب ما وصف به أشعيا السيرافيم: «السيرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير.» (٦:٢).

وعلى عملة من جبيل يوجد رسم لكرونوس كملك له أجنحة وصولجان. مما يعني رسوخ هذه الفكرة الرمزية في أذهان الفينيقيين.

٣٧- **«كان هذا يرمز إلى أن كرونوس كان يرى وهو نائم وينام وهو مستيقظ. وما يخص الأجنحة هو مثل ذلك يطير**

وهو جاثم ويرتاح وهو طائر. كما للآلهة الآخرين جناحان لكل واحد في كتفيه، ليعني ذلك أنهم يتبعون كرونوس. وجعل لكرونوس أيضاً جناحين إضافيين على رأسه، ليشير أحدهما إلى التفكير القيادي والآخر إلى التحسُّس.»

يعرض النص مدرسة فنية كاملة، هي المدرسة الرمزية التي كانت تعتمدها بلاد الشرق الأدنى القديمة، باعتبارها جمالية ذهنية أكبر أهمية من جمالية الشكل والألوان. فقد عبروا عن سلطة الأنوثة بامرأة فوق ظهر أسد، وتحمل زهرة بيدها تروضه بها. ورسموا الأمومة بامرأة تعتصر ثدييها؛ والخصب بسنابل قمح تنبت فوق كتفي رجل؛ والمطر بطائر كبير له رأس أسد للتعبير عن الرعد؛ وإله المياه العذبة له رأس خروف وبدن سمكة. هكذا كانت جمالية الحكمة.

ونلفت إلى أن بعض الباحثين رأى أن فيلون الجبيلي، وليس سانخونياتن، هو الذي نسب هذه الأعمال لطاوتس، وهو اقتبسها عن ديودورس الصقلي، مستبدلاً كرونوس بأوزيريس، وطاوتس بهرمس، حيث نجد لدى هذا المؤلف أن هرمس هو الذي علم الناس الزراعة، وعلمهم أسماء الأشياء والأبجدية، ومبادئ العبادة، وهو الذي رصد النجوم وعلم الموسيقى والمصارعة. وقد أسماه الإغريق هرمس، بمعنى الفكر المحكم (١٦:١). ومن هؤلاء الباحثين كان الأب لاغرانج في دراسته الواسعة لأديان الساميين.[٨١]

نرى هنا أن النصين هما من مصدر واحد، وأن نص سانخونياتن أكثر أصالة وقرباً من التراث الفرعوني والبابلي والكنعاني القديم.

٣٨- «وعندما كان كرونوس في مناطق الجنوب، أعطى مصر بأكملها للإله طاوتس، لتكون مملكة له. وهذه الإجراءات، كما يقول، كان الكبيرس، أبناء صديق أول من راعاها، مع أخيهم الثامن اسكلابيوس، بحسب تعاليم الإله طاوتس.

يعامل النص كرونوس كإله عالمي، وفي تخصيص مصر للإله طاوتس توكيد على ما لهذا الإله من دور توجيهي في أذهان المصريين، مع العلم أن اسمه برز في نصوص إيبلا، وفي النصوص البابلية باسم «طاوشتو» و«طاطو»، وبذات الوظائف الحكمية التي اختص بها، إذ هو «طوطو»، الاسم الثالث عشر للإله ماردوخ في التكوين البابلي، وهو يخترع الرقى السحرية ليريح الآلهة، الأعلى في مجمع الآلهة، وليس بين الالهة من هو ندٌّ له. كما نقرأ مفاخرة لحمورابي في شرائعه بأنه محبوب «طوطو».

ونجد علاقة «طاوتس» مع مصر تتردد في الرواية العربية الخاصة به. وهي تنسجم مع نص سانخونياتن، حيث نقرأ في كتاب الفهرست لابن النديم قوله: «إن أول من تكلم على علم الصفة هرمس، الحكيم البابلي المنتقل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل، وأنه ملك مصر، وكان حكيماً فيلسوفاً (ص ٣٥١).» كما الرواية تتفق مع إطلاق أسماء الأشخاص على الكواكب، حيث يتابع، فيقول: «إن عطارد باللغة الكلدانية هرمس، وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب، وأنه ملكها، وكان له أولاد، منهم: طاطا وصا وأشمن وإثريب وقفط؛ وأنه كان حكيم زمانه (ص ٣٥٢).»

كما نجد كرونوس بارزاً في تدين الحرَّانيين، حيث نقرأ

أنهم في احتفالاتهم الدينية كانوا: «ويذبحون ثلاثة زبرخ، والزبرخ فحل البقر، واحداً لقرنس الإله، وهو زحل، وواحداً لأريس، وهو المريخ، وهو الإله الأعمى، وواحداً للقمر وهوسين الإله، كما كانوا يذبحون ثوراً كبيراً لهرمس الإله.»(٨٢)

ولا تبدو هنا طقوس الحرانيين، الذين اشتهروا برصد النجوم وعبادتها، مأخوذة من التراث الإغريقي. والأسماء التي يعطيها النص لأبناء هرمس، هي مصرية صافية، يتوِّجها الاسم الأخير «قفط»، وهو اسم مصر الذي ورد في نصوص أوغاريت «ح ك ف ت».

هنا نذكر، بأن نصوص ملحمة البعل في أوغاريت، تجعل مصر تابعة للإله «إيل»، الذي هو باسم كرونوس أيضاً، كما تذكر الفقرة «١٦».

ويعتقد بعض الباحثين أن «طاوتس» هو اسم لملك مصري، هو الثالث في السلالة الملكية الأولى، حسب المؤرخ «مانيتو»، واسمه «أتحوتس»، وكان طبيباً وكتب كتباً.(٨٣)

لكن ورود الاسم والمواهب في النصوص البابلية القديمة، وفي نصوص إيبلا، تجعله رمزاً حضارياً مشتركاً بين حضارات المنطقة. ولا يسهِّل ذلك فكرة تعيين هوية زمنية جغرافية له؛ مع أنه يلفت إلى الأصل الواحد لحضارتي أرض الرافدين ووادي النيل، ويجعل الباحث يتجه إلى المنطقة الوسطى بينهما، إلى أرض الكنعانيين، متسائلاً عن غوامض تاريخها الأقدم، وإنجازات إنسانها الكنعاني العماليقي الأموري، ومدى انتشار هذه الإنجازات في البر والبحر معاً. والقرائن المتوفرة تتكشف للباحثين يوماً بعد يوم.

ما أراده النص بالإجراءات، هو تقسيم المناطق بين الآلهة، أي أن يلتزم كل واحد بمنطقته الجغرافية. وهذا هو بالفعل ما حدث، إذ كل إله من الذين ورد ذكرهم التزم بأرضه، حتى أن بعض نصوص العهد الروماني كانت تلقب البيروتيين بصفة بوزيدونيين.

وفي ذكر الكبار، أبناء صديق، يحملنا إلى اعتبار جميع الآلهة الكبار المشهورين، كانوا يحملون هذا اللقب، وحيث إن اسكلابيوس-أشمون عرف عالمياً بمركزه في مدينة صيدا، وهو من يعبر عنه بصفة «الثامن»، لا بد أن تكون جماعة من أخوته معه في الجنوب اللبناني. والتسميات التي تبرز لنا، هي في أسماء قرى جنوبية: عناتا، رشاف، قدس، صافي، سلم، شحور، صربين، وبلاط (بعلة). وهؤلاء كانوا الأشهر في التدين الكنعاني. وقد عرفنا بعضهم في تاسوع الإله «بتاح» في ممفيس.

٣٩- « و«ثابيون» الكاهن الأول بين جميع الذين أقاموا في فينيقيا، كان قد ترجم جميع هذه المعطيات بطريقة الاستعارة والتورية، وجعل أسسها مع الحياة الطبيعية والكونية، ناقلاً كل هذه العناصر إلى ممارسي «الأورجي»، وإلى الأنبياء القائلين بالحدوس: وهؤلاء هم الذين نشروا الضباب الكثيف بكل ما لهم من قوة، وأورثوه لخلفائهم وإلى المبدعين الذين كان بينهم «إيزيريوس» المكتشف للحروف الثلاثة، أخو «كنع» الذي غير اسمه إلى «فينيق».»

هذا النص يكشف خواص هامة للنصوص التي استعرضناها، ويؤكد تاريخية الوقائع بطريقة نقد الذين حولوها إلى فن مسرحي

يمثله المشاركون في حفلات «الأورجي». وسمى من هؤلاء الكاهن «ثابيون». وهذا الكاهن لم يرد ذكره عند أحد، لكن الباحث الألماني «غروب» يرى أنه عاش بين القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، كما ينقل عنه الأب لاغرانج (ص ٤٢٦).

هكذا يكون الغموض الذي طرأ على النصوص التاريخية التي سجلها سانخونياتن، حدث بسبب الاستفادة منها في الفن الديني المسرحي. هذا الفن الذي نجده كان مزدهراً في أرض الرافدين، منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كانت قصة التكوين البابلية تمثل سنوياً في يوم معيَّن، وهي تتضمن وقائع فصول الطبيعة في الأرض. كما أن أثر هذا الفن يبرز بوضوح في ملحمة البعل الأوغاريتية. ولا نرى في أصول حفلات «الأورجي»، إلاّ تمثيلاً ومشاركة في مسيرة الخصب، الذي كان من هواجس الإنسان القديم، سواء كان في النسل أم في الزرع وتزاوج القطعان.

وإذا كان النص يذكر المتنبئين لدى الكنعانيين الفينيقيين، مع غياب ذكر هؤلاء في غيره، فإن ذلك يرينا كم من تقاليد وأعراف هؤلاء، قد ضاع دون أن يلقى من يعنى به، وذلك بالمقارنة مع كثافة وجود هؤلاء وتأثيرهم لدى العبريين، ووجودهم إلى الشرق، كما تذكر ذلك نصوص مدينة «ماري» للألف الثاني قبل الميلاد.

ويذكر النص «إيزيريوس» كأخ لكنع، أي أوزير أخ لكنعان. هذا القول لم يكن مقبولاً، قبل كشف النصوص الفرعونية للألف الثاني قبل الميلاد، وكشف الوجود الكثيف لعبادات الكنعانيين ومعبوداتهم فيها.

وعند استعراض تطور طقوس أوزيريس في مصر، نجده ضئيل الوجود في نصوص الأهرام الأقدم، بينما غدا فيما بعد، يمثل دور البعل الكنعاني في موته وبعثه. وارتباط روايته بمدينة جبيل، تجعل أخوَّته لكنعان أقرب للقبول.

وبخصوص نسبة إبداع الحروف الثلاثة له، فلم نعثر على ذكر لهذه الحروف ومدلولاتها الهامة. مع هذا الغموض، لا نتورع عن افتراض هذه الحروف الهامة، هي حروف العلّة غير المكتوبة في لغة الكنعانيين؛ أي حروف المدة، الألف، الواو، والياء. فهذه الحروف أصيلة في قواعد اللغات السامية الأبجدية، لارتباطها بحالات الفاعل والمفعول به والمضاف إليه.

وآثار وجود «أوزير» لدى الكنعانيين، نجده في تسميات متعددة، منها «حازور»، عاصمة «يابين» الكنعاني (قضاة ٤:٢). وعين حازور في جوار بلدة دبل الجنوبية، واسم بلدة «عازور»، التي تحتوي مقاماً باسم «النبي عازور»، ولعله هو ذاته «عزير» في التراث العربي.

لقد سجل «بلوتارك» وقائع عبادة أوزيريس في مصر، فذكر أنهم كانوا يحتفلون هناك، وكأنهم في طقوس أعياد باخوس، أو «الأورجى» لأدونيس. وذكر أن له عيداً في بدء الربيع، يسمونه «عيد دخول أوزيريس إلى القمر». كما في كانون أول كان لهم يوم يسمونه «يوم عودة أوزيريس من فينيقيا». وهو يرى أن إيزيس وأوزيريس عبقريان، تحولا إلى إلهين لفضيلتهما، كما حصل لهرقل وديونيسوس.[٨٤]

يرى الباحث «بادج» أن عبادة أوزيريس هي أقدم من

طقوسه في مصر. وهي بوضوح تنتمي لشعب يمتلك درجة متقدّمة نسبياً من الحضارة والتطور العقلي. وهو يرجح أن عبادة أوزيريس جاءت من الشمال، وله رسم يشير إلى أن جنة أوزيريس هي الحياة في منطقة فيها ذرة وخمر وزيت ومياه غزيرة وظروفها تسمح بارتداء رداء أبيض وحذاء أبيض. كما رأى أن أقدم مركز لعبادة أوزيريس كان في الدلتا.[٨٥]

لا بد من الإشارة هنا، إلى أن اسم «أزارو» في قصة الخلق البابلية، هو الاسم العاشر للإله «ماردوخ»، ويتم تعريفه فيها بالصفات ذاتها التي عرف بها في مصر. فهو «واهب الزراعة، ضابط مستوى المياه، خالق الحبَّة والعشب، الذي يجعل النبات ينمِّص».

نرجح هنا، أن اسم شهر «آذار» في العربية كان باسم هذا الإله الكنعاني القديم. وقد لاحظ أحد الباحثين أن نصوصاً في مجموعة كتابات الأهرام، كانت تتحدث عن أوزيريس، وأقربائه كواقعة تاريخية قديمة. وهذه النصوص هي: «٦٢٢ب، ١٥٥٨ب، ٥٩٤، ٦٠-٩٥٧، ١٢١٩د، ٢٠٨٥أ».[٨٦]

وفق هذه الملاحظات، يرجح القول، أن أوزير أخو كنع، ويرجح أيضاً رأي الباحث أولبرايت الذي رأى أن بعض أفكار سانخونياتن عن التكوين تعود لعصر الأهرام في الألف الثالث قبل الميلاد.[٨٧]

وإذ نعود للحروف الثلاثة والابتكار فيها، نشير إلى أهمية فكرة التثليث لدى الكنعانيين، بدءاً من العائلة: الأب والأم والطفل، حتى تيجان الأعمدة المنحوتة على شكل طبقات ثلاث. وللتقريب

أكثر بين الحروف المذكورة والوقائع المكتشفة، نشير إلى وجود كتابة مقطعية سابقة للأبجدية في جبيل، تعرف بصفة «بسيدو هيروغليف». وهي مقطعية يكتب فيها الحرف على ثلاثة أشكال لتمييز المنحى الصوتي في الرفع والنصب والجر. ويرجح مكتشفو هذه النصوص الكتابية أنها تعود للألف الثالث قبل الميلاد.[٨٨]

كما نحن نلاحظ، هذا الإبداع التثليثي للحروف، بقي في الأبجدية الأوغاريتية كأثر للكتابة التثليثية المقطعية. حيث نجد حرف الألف وحده يُكتب بثلاثة أشكال، بينما تبقى الحروف السواكن الباقية بدون المد أو الحركة الصوتية.

هكذا نرجح أن هذه الملاحظة حول إبداع الحروف الثلاثة، كانت رواية منقولة عبر زمن طويل، وليست اجتهاداً ارتجالياً من فيلون الجبيلي، أو حتى من سانخونياتن ذاته.

وفي تغيير اسم كنعان إلى فينيق، نجد دليلاً على بروز اسم الفينيقيين وتسمية أرض فينيقيا، كجزء من بلاد الكنعانيين الواسعة. وإذا تتبعنا البحث، عن استعمال هذه التسمية، نعود إلى السجلات المصرية لأواسط الألف الثاني قبل الميلاد، حيث نقرأ اسم «فنخو».[٨٩]

٤٠- «ويتابع مضيفاً:

إن الهيلينيين ذوي الموهبة البارزة بين جميع الناس، هم الذين تبنوا أجزاء كبيرة من ذلك. وبعدئذ، ومع جميع أنواع التوشيات، حولوها إلى المسرح في المآسي، وتخيلوا معها ما يناسب الروايات الخرافية، مضيفين كل أنواع المبالغات

إلى هذه المواضيع. وقد استخدمها هزيود وشعراء الدواوين المشهورون لاصطناع قصصهم الخاصة، عن مولد الآلهة والعمالقة والتيتان، وروايات اجتثاث الأعضاء الجنسية، بحيث غدا لترددهم نصيب من الحقيقة.»

هذا النقد التاريخي الذي يوجهه فيلون الجبيلي للإغريق، لا ينسجم مع ما نقله عنه المؤرخ أوزيب، من مختصرات لا تختلف كثيراً عما لدى شعراء الإغريق. بينما هو، كما نفهم من ملاحظته، كان يكتب بهدف تنقية التراث الفينيقي من توشيات الشعراء ومبالغاتهم. ومن هذا نستنتج أن أوزيب كان يختار من النص ما يصلح لتهكمه، دون مراعاة الجهة التي يأتي منها النص وأسانيده. فغايته كانت تسفيه الأفكار التدينية السابقة لتدينه.

وما يُستند إليه في هذه الملاحظة، هي الثقة بحكم فرفوريوس الصوري على قيمة النص وتأييده لنشره.

وحول إضافة شعراء الإغريق للمبالغات، نقرأ موقفاً للمؤرخ هيرودت، يتفق مع موقف فيلون الجبيلي في هذا الشأن. فهذا المؤرخ، قال: «إن هوميروس وهزيود الشاعرين اللذين ألّفا قصص الآلهة، ووصفا الآلهة لنا، أعطياهم الألقاب المناسبة، والوظائف والقوى. وهما عاشا، كما أعتقد، ليس قبل ما هو أكثر من أربعمائة عام منا.» (٢:٥٤).

وحين نجد التقاءً كاملاً بين هذين الشاعرين، حول أسماء الآلهة وأنسابها ووظائفها، مع أنهما متقاربان في الزمن، نفترض أنهما كانا يعتمدان على مصدر واحد لمروياتهما. وهذا المصدر

هو ذاته ما اعتمده سانخونياتن.

٤١- «لقد اِلفت آذاننا، منذ طفولتنا تخيلاتهم التي نفذت إليها بمقرراتها المسبقة منذ قرون طويلة، فغدت كخزانة لهذه المادة من الأباطيل التي تلقتها كما قلت منذ البدء. وقد أعطى الزمن دعمه لهذه المادة، بحيث أصبحت في النهاية غير قابلة للدحض. وقد باتت الحقيقة أمامها وكأنها هذيان والروايات الصبيانية غدت الحقيقة.»

هذا كان أعنف نقد يوجه إلى الميثولوجيا الإغريقية، والثقافة الهوميرية. وقد استفاد المؤرخ أوزيب من نشره لتسفيه هذه الميثولوجيا على لسان من وصفه فيَ صفها.

نحن نفاجأ من جرأة فيلون الجبيلي في هذا القول، في زمن كانت الثقافة الإغريقية لا تزال هي السائدة، خلال القرن الأول للميلاد. وهو يكشف بوضوح نهجه النقدي وعمق ملاحظته عن مساندة مرور الزمن للروايات، والنسبية في تقدير الحقيقة. فهذا النهج يكون فقط عند التعامل مع حضارتين، يتعارض بعض إحداهما مع بعض ما لدى الأُخرى، ولا ينشأ من الداخل؛ حيث تكون الحقائق مستقرة بمسلمات شعبية، يكون الخروج عليها ذا ثمنٍ غالٍ، قد يصل إلى الموت كما حدث لسقراط وبرونو والسهروردي وغيرهم من شهداء الفكر الجريء.

٤٢- «ذلك هو ما يقوله كتاب سانخونياتن الذي ترجمه فيلون الجبيلي، وأثبتت هويته لنا شهادة الفيلسوف فرفوريوس.»

في هذا المقطع، يُنهي المؤرخ أوزيب استعراض كتاب سانخونياتن المترجم، وهو قول يدعم وجود الكتاب كاملاً بين يديه، وبين يدي عدوه الفلسفي اللدود فرفوريوس.

فيلون الجبيلي ومروية كرونوس

يتابع أوزيب ناقلاً عن فيلون الجبيلي، فيقول:

٤٣- «إن طاوتس الذي يدعوه المصريون «طووط»، وهو بارز في العلم بين الفينقيقيين، كان أول من نظم قواعد العبادة الدينية بنقلها من غشامة العامة إلى الخبرة المتنوِّرة. وبعد عدة أجيال، تبعت خطاه، قام الإله «صورموبلس» وثورو الذي يدعى أيضاً كوزارتس، بإبراز العلم اللاهوتي لطاوتس الذي كان غامضاً ومخفياً بالرمزيات.»

يتابع أوزيب استعراض ما كتبه فيلون الجبيلي في موضوع التاريخ عارضاً الوجود المعنوي لطاوتس، ليس لدى الفينيقيين، بل لدى المصريين أيضاً، وهو ما ذكرناه في شرح الفقرة «٢٣». أمّا الإله «صور موبلس»، فلا نرى فيه غير صفة «صورم بعلس»، أي بعل الصوريين. وقد ألفنا تسمية ملك صور بصفة «بعل»، و«ثورو»، وهي صفة أيضاً تطلقها نصوص أوغاريت على الإله «إيل»؛ بينما هنا نجدها صفة لكوزارتس، أي «كوشر» أو «كوثر» ذاته، المعادل للإله «فتاح»، حسب نص داماشيوس في شرح الحاشية «٧». وهذا وفق النصوص التي وصلتنا عنه هو، من فئة طاوتس، بوظائفه ومسؤولياته، وله ذات العلاقة مع مصر الفرعونية،

بحيث لا نرى فيه سوى اسم آخر له.

أمّا تنظيم العلم الإلهي، فلا يعني لنا هنا سوى تنظيم طقوس التدين والاحتفالات الدينية، لتنسجم مع إيقاع الطبيعة وفصولها، والتقدمات المتوجبة على الإنسان لحفظ التوازن النفسي له، في عقائده الدينية. وهذا التنظيم هو الذي حافظ على تدين القدماء، طوال ما يقارب ثلاثة آلاف عام، قبل ظهور المسيحية في المنطقة، وتجديدها لبعض هذه الطقوس...

قد حاول الباحث «دي بويسون» إيجاد تفسير لاسم «صور موبلس» بعد حذف اللاحقة اليونانية «س»، فرأى أنه اسم بعل صور مضاف إليه كلمة «يبل» التي تعني بالعبرية الغلة والنتاج الزراعي. ولكن التفسير الأكثر معقولية، كما نراه هو أن الاسم مكوَّن من ثلاث كلمات، هي: «صور رم بعل»، أي بعل صور العليا، أي المنطقة الجبلية المشرفة على مدينة صور. وقد وردت هذه التسمية للمنطقة «صور رم»، في نص فرعوني يعود للأسرة التاسعة عشرة، خلال رسالة أرسلها الفرعون مرنبتاح إلى موظف مصري مقيم فيها، بالإضافة إلى رسالة إلى حاكم صور الذي كان يدعى آنذاك «بعلة رمق». وذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.[٩٠]

ما يرجح هذا التفسير للاسم، هو وجود الاسم المرافق «ثورو» الملقب «كوزارتيس»، أي «كوشر» الأوغاريتي. فهذا اسم حاول «دي بويسون» أيضاً أن يفسره بمدلول كلمة طير، أي طائر، مورداً قرائن على مرافقة طير الحمام للإلاهة عشتارت كرمزٍ لها.[٩١]

ووجود عددٍ كبيرٍ من أسماء القرى، يبدأ بكلمة «طير»، في

منطقة صور العالية، أي البلاد المطلة على مدينة صور البحرية، هو القرينة المرجحة على أن المقصود هو «بعل صور رم»، أي بعل هذه المنطقة. ومن هذه الأسماء للقرى «طيرديا، طيرحرفا، طيرفلسي، طيري، طورا، طيرسمحات، وغيرها. كما أن لقب «ثورو» (كوشر) نجده في اسم بلدة «كوثرية» في المنطقة ذاتها.

هذا اللقب الأخير افترضه دي بويسون مؤنثا أيضاً، ويعني القابلات المولدات «كوشاروت». وهذا الافتراض يبعده عن سياق النص. والأصح أنه من ألقاب «فتاح»، مثل «طور». وقد نص على ذلك بوضوح نص التكوين لدى «موخس الصيدوني». كما ذكرنا في شرح الحاشية «٧»، كما أنه في الوقت ذاته من صفات الإله «إيل»، وفق نصوص ملاحم أوغاريت. ونجد الجامع بين هذه الألقاب جميعاً وحدة الوظيفة الإبداعية، وهي القرينة المرجحة، كما نرى. كما أننا نجد الاسم «فتاح» في تسمية «بطاح» في صيدا، كما في منطقة النبطية في قريتي الدوير والشرقية، وهو يحمل صفة «نبي». وكان هيرودت المؤرخ ذكره كشفيع للبحارة الفينيقيين، يضعون تمثاله على مقدمة سفنهم باسم «بتاخي» (٣٦:٣). وهكذا نجد في تسميات المواقع المتوارثة في منطقة صور ما ينير علاقة هذه الأسماء بتاريخ المنطقة. ومثل هذه القرائن الجغرافية لم يتطرق إليها الباحثون لإهمالهم تراث الجنوب اللبناني، بما فيه من آثار واستمرارية متميِّزة في توارث التسميات دون أن يطرأ عليها سوى بعض التحريف أحياناً، ليكون لها مدلول عربي ذو معنى مقبول من العامة.

خير مثال على التوارث والاستمرارية نجده في شخصية

المبدع والملهم «طوط»، الذي نجده مدلولاً معنوياً يصل إلى حد التجريد أحياناً، بأسمائه وتحريفاته المتعددة في مصر الفرعونية وبابل السامية، حتى التراث العربي الذي عرفه بلفظة «طاغوت».

٤٤- **«ثم يتابع بعد ذلك بقليل:**

كانت العادة عند القدماء، أنه في حالة الخطر الشديد، يقوم رؤساء المدينة أو رؤساء الشعب بتقديم أضحيات لتجنُّب الدمار العام. وهذه الأضحيات تكون أعزّ أبنائهم، يقدمونهم كفداء لآلهة الانتقام. والذين يتم اختيارهم لذلك يذبحون في حفلات الأسرار. ووفق ذلك كان كرونوس، الذي يدعوه الفينيقيون «إيل»، يحكم البلاد آنذاك، وهو من جرى تأليهه بعد موته وتكريسه لنجم كرونوس. كان له ولد وحيد من حورية وطنية، تُدعى «أنوبريه». ولهذا السبب دعي «يحود» كعادتهم اليوم بتسمية الأبناء الوحيدين عند الفينيقيين. وعلى أثر حرب وأخطار جسيمة كانت تهدد البلاد قام بتزيين ابنه بالزينة الملكية، وقدمه إلى مذبح، وضحى به.»

يورد الأسقف أوزابيوس هذا النص، نقلاً عن فيلون الجبيلي، لاستنكار وقائعه، معتبراً إياها أعمالاً بربرية بالقياس إلى معتقداته المسيحية. ولكنه لم ينتبه إلى أنه مما توارثته المسيحية في عقيدة الفداء. فالكنعانيون القدماء لم يقدموا أضحياتهم البشرية من الأسرى أو الضعفاء بينهم، بل كانت هذه الأضحيات من أعز أبنائهم. وهذا ما حاول أن يقوم به إبراهيم قبل أن يستبدل ابنه بكبش. ولنا هنا أن نتخيل الألم الذي يصيب الوالدين عندما

يقدمون ابنهم للموت، مقتنعين بضرورة فعل ذلك لإرضاء الإله الناقم عليهم لإنقاذ مدينتهم، أو افتداء مجتمعهم. وهذا الطقس كان من طقوس تعذيب الذات لدى الساميين القدماء، ولا يزال مستمراً ببعض وجوهه لديهم. وهو من أرقى مشاعر المسؤولية وحب المشاركة بالألم؛ ويختلف كلياً عن الطقوس التي كانت مألوفة لدى غيرهم، إذ أنه كفارة عن خطايا ذاتية، وليس ابتهاجاً بنصر أو غلبة على أعداء. وقد حمله الكنعانيون معهم إلى بلاد الإغريق، كما يذكر ذلك بوزانياس، عند ذكر حرب بين أبناء «طيبه» والأورخومين، فضحت بنات أكبر أشراف المدينة بأنفسهن، عندما تردَّد والدهن بفعل ذلك (٩:١٧، ١).

لقد كانت هذه العقيدة في التضحية من الذات ذات تأثير نفسي كبير في نفوس الناس. فنقرأ مثلاً في سفر الملوك الثاني، أن ملك مؤاب عندما هزمه الإسرائيليون: «فأخذ ابنه البكر الذي كان قد ملك عوضاً عنه وأصعده محرقة على السور، فكان غيظ عظيم على إسرائيل، فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم.» (٢٧:٣).

الملاحظة الهامة في هذه الفقرة، أنها تذكر أن «كرونوس» كان شخصية واقعية وحاكماً زمنياً للبلاد، وقد جرى تأليهه بعد ذلك وتعيين نجم سماوي كرمز له. وهذا ينسجم مع عقيدة التأليه الكنعانية التي لا تعني أكثر من إعطاء صفة العَلَمية للشخصيات الشهيرة، وهي «ال التعريف» للمطلق. أمّا اسم كرونوس الذي رأى الباحثون أنه يوناني الأصل، ويفيد معنى الزمن، فنشير هنا إلى وجود مواقع كنعانية بهذا الاسم، هي جبل «كروم» في شمال لبنان، و«مجدل كروم» في جبال الجليل. وحرف الميم لا نرى

سوى أنه تسهيل للفظ لدى العامة. والنجم الذي يحمل هذا الاسم هو «زحل»، كيوان لدى العرب.

وتسمية «أنوبريه» ليس لها ذكر ميتولوجي، بينما تسمية «يحود» لا تزال مألوفة باسم «وحيد» في العربية.

٤٥- **«ولننتبه أيضاً لما يقوله مؤلفنا خلال ترجمته لفصل لدى سانخونياتن حول العناصر لدى الفينيقيين، عندما يتحدث عن الأفاعي والحيوانات السامة، التي لا تقدم للإنسان أية فائدة، ولا تجلب سوى الموت والخراب لأولئك الذين تنفث فيهم السم الذي لا شفاء منه، وبدون رحمة. وهذا ما يكتبه أيضاً كلمة فكلمة:**

٤٦- **«إن تاوتس شخصياً ألّه طبيعة التنين والأفاعي، وبعده فعل ذلك الفينيقيون والمصريون بدورهم. فمن بين جميع الزواحف بالنتيجة ذكرها كمثال للحيوان الذي لديه التنفس الأقوى والأقرب إلى النار. وطوّر سرعة لا يستطيع شيء تجاوزها بسبب تنفسه، برغم عدم وجود أرجل تساعده أو أيدٍ، أو أية وسائل خارجية، مثل تلك التي تعتمد عليها باقي الكائنات لحركاتها. فهو يعطي وضعه أشكالاً مختلفة جداً، وخلال تقدمه يعتمد الشكل الحلزوني ليبلغ السرعة التي يريدها.**

افترض الأب لاغرانج، أن أوزيب الأسقف ذاته، أضاف فصولاً نسبها إلى سانخونياتن للسخرية من أفكاره[٩٢]. لكننا

نستبعد ذلك، ونرى أن هذه الفقرة عن الحيات والأفاعي تنسجم مع الفكر الكنعاني الذي قدس الحيات، واعتبرها رمزاً للخلود والديمومة، لانسجامها مع فكرة التجدد السنوي، بخلعها جلدها القديم كل سنة.

وقد رسمها الكنعانيون ملتفة حول دائرة، وهي تبتلع برأسها ذنبها كتعبير عن فكرة التجدد الذاتي. وقد كانت من مقدسات الكنعانيين، ودامت عبادتها في بلاد اليهودية، حتى زمن حزقيا بن آحاز، الذي: «سحق حية النحاس التي عملها موسى، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها، ودعوها نحشتان»، كما يذكر ذلك سِفر الملوك الثاني (٤:١٨).

كما كانت الحيَّة رمزاً للإله شيت، تحت اسم «أبيب» في النصوص الفرعونية أو «بيبون»، كما ورد عن مانيتو (ف ٧٩). وقد عرفت باسم لوياتان، نحش، ورهب، واشتهرت شراكتها في عدد كبير من الأساطير كعدو للإنسان، حرمته الخلود أو الإقامة في الجنة. كما كشف علم الآثار دلائل على التعبد لها، في عددٍ كبيرٍ من المدن الكنعانية الأقدم في فلسطين.

ويكشف هذا الموضوع، أن الكتاب كان يتضمن دراسات وملاحظات في العلوم الطبيعية، إلى جانب الكتابات التاريخية أو القريبة منها.

٤٧- **«إنه يعيش عمراً طويلاً، وليس فقط حين يتحرك، بل لديه موهبة الصيام، وموهبة النمو باطراد. وعندما يبلغ الحجم المحدّد له ينحل في ذاته. كما ذكر ذلك شخصياً «تاوتس»**

في كتاباته المقدسة. ولهذ السبب يذكر هذا الحيوان في احتفالات العبادة، وفي طقوس الأسرار.»

نفهم هذه الملاحظة كاجتهاد لتفسير وتبرير عبادة الحيَّات في الدين الكنعاني القديم. وما يقصده بالانحلال في الذات، هو تضاؤل حجم الحيَّة في حالة خدرها الشتائي، بحيث يتسع جلدها، فتخلعه في الربيع مبدلة إياه بجلد جديد لامع ظاهر الحيوية، فتظهر معه وكأنها تجدد شبابها. ولعل الإشارة إلى الكتابات المقدسة، إنما هي إشارة إلى النصوص التي كانت متداولة في العهد الروماني تحت اسم «الهرمسية».

٤٨- **«ولقد تحدثنا عن ذلك مطولاً في مذكراتنا المعنونة «من عبادة تحوت»، حيث فيها نذكر خلوده وانحلاله في ذاته. لأن هذا الحيوان لا يموت موتاً طبيعياً، وإنما حين يكون ضحية عنف.»**
«يدعوه الفينيقيون «أغاتوديمون»، ويعطيه المصريون اسم «نيف»، بالطريقة نفسها، ويضيفون إليه رأس صقر بسبب قوة هذا الطائر.»

وهنا نقرأ إشارة أيضاً إلى كتابة لفيلون عن العبادات، وفكرة الخلود للحيَّة: أمّا تسمية «أغاتوديمون» فالمعنى اليوناني للاسم هو «الروح الطيب»، ولكن الاسم هذا كما وصلنا خلال التراث العربي هو لحكيم اسمه «أعاش ديمون»، صنع جرساً (جلجلا) للحيَّات، كانت الحيَّات تخرج على صوته، فتهرب أو تهلك. كما كان

صنع أرصاداً في براري «اخميم» جعلها مثلاً للأمم الآتية وكانت له نبوءات للمستقبل.(٩٣)

هذه الرواية العربية للأسطورة تثبت انتشارها. أمّا رأس الصقر فهو إشارة أيضاً إلى الإله الفرعوني «حورس» الذي يمثله الصقر، وهو يُدعى بالعربية «حر»، ويعتبر «سيد السماء». وقد جرى دمجه بإله الشمس «رع». واقترانه بالحيَّة هنا، هو تكريس للخلود. وكان حورس يتمثل بشكل إنسان له رأس صقر، ويعود إلى زمن ما قبل السلالات الفرعونية. ولم تذكر الروايات المصرية أنه كان بشكل أفعى.(٩٤)

٤٩- «و«إبابيس» الذي يوصف لديهم بأنه الكاهن الأعظم المختص بالأسرار التعبدية الذي ترجمه «أريوس» مواطن «هرقليوبولس»، عبّر عن ذلك بوضوح في قوله: «إن أول كائن غدا إلهياً بارزاً، هو الأفعوان بشكل صقر المملوء بالنعمة، فهو عندما يفتح عينيه كان يملأ بالنور جميع الأشياء الموجودة الأولى في أنحاء الأرض الخاصة به. وعندما كان يغمضهما كانت تسود الظلمة.

٥٠- وما أراد «إبابيس»، قوله هو أنه من الطبيعة النارية، حين وصفه باللمعان، لأن اللمعان هو من خواص النور. وقد اقتبس «فريسيد» أيضاً من الفينيقيين أفكاره اللاهوتية المتعلقة بالإله، الذي دعاه «أوفيون»، الخاص بالأوفيونيين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد.»

الاسمان إبابيس وأريوس غير معروفين. أمّا مدينة

«هرقليوبولس»، فهي في شمال آسيا الصغرى أسسها الميغاريون والبويثيون سنة ٥٦٠ قبل الميلاد. وترجمة نظرية الخلق من قبل الأفعوان لا بد أنها حدثت بعد هذا التاريخ. والنظرية ذاتها هي من أصل مصري فرعوني تقول في جوهرها بأن الخلق يتم بالوعي الذاتي للإله، أي بفتح العين ورؤية الأشياء، وهي غامضة الأصل. ولا بد من أن يكون حصل خلل في النص عند تلخيصه ونقله بيد أكثر من مترجم وناسخ. فالخلق بالوعي والتسمية أي بالقلب واللسان هو مما ينسب في مصر للإله «بتاح العظيم».

يرى الباحث روبرت غريفس أن نظرية الخلق من قبل الأفعى، إنما وصلت إلى بلاد الإغريق مع البلاسجيين من فلسطين مع هجرة حدثت في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد (٢:١). وقد عرفت الأفعى الخالقة باسم «أوفيون»، حسب أبولونيوس رودس (٤٩٦:١). وهذا الرأي في الهجرة ينسجم مع قول فيلون الجبيلي أن «فريسيد» اقتبس أفكاره اللاهوتية عن الفينيقيين. وحيث إن العقيدة الاوفيونية التي كتب عنها فريسيد هي من العقائد الأورفية، فإن أورفيوس كان قد اقتبس الكثير من معتقداته من مصر التي كان زارها واقتبس معارف منها، كما يذكر ذلك ديودورس الصقلي (٩٦:١، ١-٧). كما أنه كان يعاشر سلالة قدموس ويقتبس معتقداتهم وطقوسهم ويحظى باحترام كبير بينهم في مدينة طيبه (٢٣:١، ٨).

وفريسيد هذا الذي يذكره فيلون كان معاصراً لفيثاغورس، وهو أحد اثنين بهذا الاسم. أحدهما من أثينا والآخر من «زايروس»، عاشا في أواسط الألف الأول قبل الميلاد وأحدهما اشتهر بالتنجيم والآخر باللاهوت، وهذا كان معلماً لفيثاغورس.(٩٥)

والمعلومات المذكورة هنا، عن أنه اقتبس عن الفينيقيين، هي ذات أهمية خاصة للباحثين في تاريخ هذه الشخصية.

وما يذكره النص عن طبيعة نارية للأفعى ليس شرطاً أن تكون مرتبطة باللمعان الذي يكون لجلد الأفعى المتجدد في الربيع، إذ قد تكون الإشارة إلى سمها القاتل.

٥١- **«ويرسم المصريون أيضاً العالم بهذا المفهوم ذاته، فيحفرون دائرة لها ألوان النار والسماء مع أفعى لها شكل صقر يمد جناحيه في وسطها، بشكل حرف «ثيتا»، فبالدائرة يتصورون العالم، وبالأفعى يرمزون إلى الروح الطيب (أغاتوديمون) في وسطه، وهو يعتمد عليه.»**

هذا الرمز للعالم بالدائرة مألوف لدى الفينيقيين أكثر منه لدى المصريين القدماء. وخير مثال رمزي له هو الأفعى الملتفة حول الدائرة، وهي تلامس برأسها ذنبها، تعبيراً عن عقيدة التجدد الذاتي للعالم، كما ذكرنا في شرح الفقرة «٤٧».

٥٢- **«وقد قال «زوروسترا» المجوسي في «المجموعة المقدسة»، للدين الفارسي وبوضوح: «الألوهة لها رأس صقر. وهي الأولى وغير فانية، خالدة، وغير مخلوقة وغير منقسمة، ولا شبيه لها، وهي دليل إلى كل أشكال الجمال، ولا تتأثر بالهدايا، وهي الخير المطلق وذكاء الأذكياء. هذا الإله هو أبو الشرائع الجيدة والعدالة، وعلمه من ذاته، وينسجم مع الطبيعة، كامل، وعاقل، وواحد، ومبدع قداسة**

الطبيعة.» و«أوستانس» أيضاً يذكر الأشياء ذاتها في كتابه المعنون «الصلوات الثماني».»

ترد هذه الصفات للألوهة على لسان «زوروسترا»، لكنها أقرب إلى الفكر الرواقي الذي كان منتشراً في لبنان خلال العهد الروماني، إذ الفلسفة المجوسية بمجملها كانت ثنائية النهج في المفاهيم اللاهوتية، وهو ما ورثته المسيحية في مفهوم الإله والشيطان والخير والشر، إلى جانب ما ورثت عن الرواقية من تفسيرات واجتهادات في المفاهيم اللاهوتية.

ويبدو أن الإشارة إلى أفكار «أوستانس»، هي إضافة من المؤرخ أوزيب. ويرجح أن أوستانس هذا هو أحد مفكري المسيحية الأوائل.

٥٣- **«لقد اعتمد الجميع على «تاوتس»، مستوحين نظرياتهم التكوينية منه، ومما كان قد وضع أسسه. وبعد أن أنشأوا معابد كرسوا في هياكلها العناصر الأولى التي تمثلها الأفاعي، وأقاموا أعياداً وقدموا أضحيات وطقوساً «أورجية» بمشاعر لديهم أن هناك تقيم الآلهة الأعلى والعلل الأولى للكون، وهذا ما يكفي حول الأفاعي.»**

تبدو هذه الفقرة أنها من تلخيص أوزيب. وليس لدينا نصوص كافية حول تقديس الأفعى لدى الكنعانيين القدماء، إنما وصلنا عنها أنها كانت رمزاً للتجدد والخلود ليس لديهم وحسب، وإنما لدى حضارة أرض الرافدين أيضاً، حيث تعرف هناك باسم

«نن جش زيدا» سيدة الأرض. وكانت شفيعة الملك العظيم «غوديا» حاكم مدينة «لغش»[٩٦]. كما كانت مع دموزي تحرس باب الإله عند زيارة «ادابا» الحكيم للإله طلباً للخلود.[٩٧]

وخلال دراسة فنون أرض الرافدين، نجد أن الحيوانات فيها كانت رموزاً تعبيرية، تشدد على خواص هذه الحيوانات الطبيعية. فيكون النسر مثلاً رمزاً للغيمة، ويكون رأس الأسد رمزاً للرعد، والحيَّة رمزاً للتجدد والخلود. وهكذا يكون التعبد ليس للحيوانات بذاتها، وإنما لما تمثله من خواص. وهذا ما لم يكن معروفاً في زمن أوزيب، أو في زمن فيلون الجبيلي قبله.

٥٤- **«هذا ما هو عليه اللاهوت الفينيقي. وهو ما علمتنا عقيدة السلام أن نبتعد عنه، ولا نعود إليه. كما علمتنا أن نبحث عن شفاء لجنون القدماء. فهي لم تكن خرافات وخيالات شعرية تتضمن نظرية غامضة، وإنما مشاهدات صحيحة من قبل حكماء ولاهوتيين قدماء، كانوا يتخذونها هم أنفسهم، وهي أقدم بمضامينها من جميع الشعراء والكتاب. وهم يستعملون كإثباتات لأقوالهم أسماء الآلهة والروايات التي لا تزال حتى زمننا نحن في التداول في مدن وقرى فينيقيا، إلى جانب طقوس الاحتفالات المنتشرة لدى كل شعب. وهذا الأمر هو من الوضوح، بحيث لم تبقَ هناك ضرورة للبحث عن تفسيرات فيزيائية مختلقة لها، ما دامت الوقائع تقدم براهين واضحة عليها.**

هكذا هو إذن اللاهوت لدى الفينيقيين. ومنه ننتقل لدراسة معتقدات المصريين.»

هكذا كانت خاتمة تعليق الأسقف أوزيب، على ما نقله عن فيلون الجبيلي. وهو يعترف فيها، بأنه أراد من خلال نشره، إظهار ما فيه من معارضة للأفكار المسيحية، التي كنّى عنها هنا بعقيدة السلام. وأهم ما ورد في هذه الخاتمة، هو ما ذكره من استمرارية تداول العقائد والطقوس الفينيقية في زمنه، في قرى الأرض الفينيقية؛ حيث لا يزال عدد كبير من هذه القرى يحمل أسماء معابد وإشارات إلى مقدسات فيها، كانت تخص آلهة مشهورة منذ أقدم الأزمنة؛ مثل: عناة، رشف، قدش، صافي، عازور، بطاح، صديق، وغيرهم. كما لا يزال بعض مقامات هؤلاء يتلقى النذور والتقدمات مع الاحترام التديني الكامل له، وفي زمننا نحن، في نهاية القرن العشرين للميلاد.

حواشي الدراسة

(1) Eusèbe De Césarée, La Préparation Evangélique 1:9, 19; éd. C.E.R.F. 1974.

(2) Ancient Near Eastern Texts, by J. Pritchard, p. 654; ed. Princeton University Press, 1969.

(3) Albright (W.F.), Yahweh and the Gods of Canaan, p. 29; ed. The Athlone Press, 1968.

(4) Du Buisson (Robert du Mesnil), Etudes sur les Dieux Phéniciens Hérités par l'Empire Romain, pp. 117-118; éd. Leiden, E.J. Brill 1970.

(5) Pettinato (Geovanni), The Archives of Ebla, p. 250; ed. Doubleday & Company inc., 1981.

(6) Lagrange (Marie Joseph), Etudes sur les Religions Sémitiques, p. 406; éd. Librairie Victor Lecoffre, Paris 1905.

(7) Damascius, Traité des Premiers Principes de la Procession, vol. 3, p. 166; éd. Les Belles Lettres, 1991.

(8) Albright (William Foxwell), Yahweh and the Gods of Canaan, p. 194; ed. The Athlone Press, 1968.

(9) Ed. cit., pp. 194-196.

(10) Lucrèce, De la Nature, livre 5, p. 39; éd. Librairie Hatier No. 136.

(11) Albright; ed. cit., p. 196.

(١٢) اليزيديون، في حاضرهم وماضيهم، السيد عبد الرزاق الحسيني، ص ٦٠، نشر مطبعة العرفان – صيدا ١٩٦١.

(١٣) الفهرست، ابن النديم، ص ٣٥٢، نشر مكتبة خياط – لبنان.

(١٤) جماليات الحكمة في التراث الثقافي البابلي، يوسف الحوراني، ص ١٢٢، دار النهار للنشر – بيروت ١٩٩٤.

(15) Les Penseurs Grecs Avant Socrate, pp. 57, 158; éd. Garnier Flammarion, 1964.

(16) Du Buisson; éd. cit., p. 39.

(17) Langdon (S.H.), The Mythology of All Races, vol. 5, p. 18; ed. Archaeological Institute of America, Boston 1931.

(18) A.N.E.T., p. 534.

(19) Lagrange; éd. cit., p. 415.

(20) Breasted (James Henry), Ancient Records of Egypt, 3:633; ed. The University of Chicago Press, 1906.

(21) Une Bibliothèque au Sud de la Ville Ras Shamra-Ougarit VII, par F. Malbran-Labat, p. 58; éd. Recherches sur les Civilisations, Paris 1991.

(22) Mélanges de l'Université Saint-Joseph, Fasc. 15, par Jean Starcky, p. 260; éd. Imprimerie Catholique, 1969.

(23) A.N.E.T., p. 300.

(24) Du Buisson (Robert du Mesnil), Nouvelles Etudes su les Dieux et les Mythes de Canaan, p. 41.

(25) Lagrange; éd. cit., p. 417.

(26) A.N.E.T., p. 104.

(27) Du Buisson; éd. cit., p. 110.

(28) Lagrange; éd. cit., p. 418.

(29) Drioton (Etienne), Les Religions de l'Orient Ancien, p. 24; éd. Librairie Arthème Fayard, 1957.

(30) Du Buisson, Etudes sur les Dieux Phéniciens, p. 51.

(31) Manetho, p. 113, No. 52; ed. L.O.E.B Classical, 1980.

(32) A.N.E.T., p. 249.

(33) A.N.E.P., No. 273.

(34) A.N.E.T., pp. 249-250.

(35) Du Buisson, Les Dieux Phéniciens, p. 71.

(36) A.N.E.T., p. 654.

(37) A.N.E.T., pp. 130, 149.

(38) J.N.E.S, vol. VIII, 1949, The Canaanite God Horon, by John Gray, pp. 27-34.

(39) B.A.S.O.R., No. 84, 1941, The Egypto-Canaanite Deity Haurôn, by W.F. Albright, pp. 7-12.

(40) A.N.E.T., p. 654.

(41) A.N.E.T., p. 534.

(42) Dhorme (Edward), Les Religions de Babylonie et d'Assyrie, pp. 165, 173; éd. «Mana», Presses Universitaire de France, 1949.

(43) Mathia (Paolo), Ebla, An Empire Rediscovered, p. 86, trans. By Christopher Holme; ed. Doubleday & Company inc., N.Y., 1981.

(44) Allegro (J.M.), The Dead Sea Serolls, p. 143; ed. Pelieon Book, 1961.

(45) Lagrange; ed. cit., p. 431.

(46) A.N.E.T., p. 137.

(47) A.N.E.T., p. 120.

(48) Dussaud (René), Les Religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, p. 366; éd. «Mana», Presses Universitaires de France, 1949.

(49) Dunand (Maurice), Byblos, pp. 19-21, Beyrouth 1968.

(50) Ganneau (Clermont), Recueil d'Archéologie Orientale, Tome Premier, p. 188; éd. Ernest Leroux, Paris 1888.

(51) Du Buisson, Nouvelles Etudes sur les Dieux et les Mythes de Canaan, pp. 228-231; éd. E.J. Brill, Leiden 1973.

(52) Du Buisson; éd. cit., pp. 72, 76, 84.

(53) A.N.E.T., p. 534.

(54) Lagrange, éd. cit., p. 432.

(55) Du Buisson; éd. cit., pp. 102-103.

(56) A.N.E.T.; ed. cit., p. 333.

(57) Dhorme; éd. cit., p. 165, chap. 6:4.

(58) Pettinato; ed. cit., p. 246.

(59) Revue Tunisienne, No. 104, 1914, «Le Panthéon d'Hannibal», par Eusèbe Vassel, p. 177.

(60) Astour (Michael C.), Hellenosemitica, p. 259; ed. E.J. Brill, Leiden 1967.

(61) Astour; ed. cit., p. 306.

(62) Lagrange; ed. cit., p. 403.

(63) A.N.E.T., p. 654.

(64) Astour; ed. cit., p. 213.

(65) Budge (Wallis E.A.), The Gods of the Egyptians, vol. 2, p. 247; ed. Chicago, The Open Court Publishing Comp., 1904.

(66) Astour; ed. cit., pp. 213-214.

(67) Astour; ed. cit., p. 210.

(68) A.N.E.P., No. 499.

(69) Philostratus, The Life of Apollonius of Tyana, 5:5; ed. L.O.E.B. Classical, 1961

(70) Bellido (A. Garcia), Hercules Gaditanus, Les Religions Orientales dans l'Espagne Romaine, chap. XIV, pp. 152-166; éd. E.J. Brill.

(71) Gray (John), The Canaanite God Horon, in J.N.E.S., pp. 27-32, vol. VIII, 1949.

(72) Albright (W.F.), The Canaanite God Hauron, in «The American Journal of Semitic Languages, pp. 8, 4-10, vol. LIII, October 1936, No. 1.

(73) A.N.E.T.; ed. cit., pp. 280, 298, 321.

(74) Dhorme; éd. cit., p. 99.

(75) Dussaud; éd. cit., p. 392.

(76) Nonnus (De Panopolis), Dionysiaca, No. 40:369-388.

(٧٧) الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس (قصص الأنبياء)، ص ١٤٥، نشر دار إحياء الكتب العربية.

(78) Flavius (Josèphe), Histoire Ancienne de Juifs, pp. 244 & 302; ed. LIDIS.

(79) Dhorme; éd. cit., p. 68.

(80) A.N.E.T., p. 62.

(81) Lagrange; éd. cit., p. 430.

(٨٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥١، ٣٥٢، ٣٢٢، نشر مكتبة خياط - بيروت.

(83) Manetho, pp. 33 & 210.

(84) Plutarque, Isis et Osiris, pp. 121, 140, 158, 96; éd. l'Artisan du Livre, Paris 1924.

(85) Budge; ed. cit., pp. 118 & 122.

(86) J.N.E.S., vol. XVIII, No. 3, 1959, Egyptian Theology in the Third Millennium B.C., by Rudolf Anthes, p. 205.

(87) Albright; ed. cit., p. 195.

(88) Mendenhall, (George E.), The Syllabic Inscription from Byblos, pp. 7-10; ed. American University of Beirut, 1984.

(89) A.N.E.T., pp. 234, 241.

(90) A.R.E., by J.B. Breasted, 3:630-633; ed. The University of Chicago Press, 1906.

(91) Du Buisson, N.E.D.M.C, pp. 80, 81.

(92) Lagrange; éd. cit., p. 404.

(٩٣) الواقدي، فتوح الشام، ٢٣:٢ و٢٩، نشر عبد الحميد أحمد حنفي، ١٣٦٨هـ.

(94) Frankfort (Henri), Ancient Egyptian Religion, p. 23; ed. Harper Torchbooks, 1961.

(95) Diogène Laërce, «Phérecyde», tome 1, p. 95; éd. Garnier Flammarion, 1965.

(96) Dhorme (Edward), Les Religions de Babylonie et d'Assyrie, p. 135; éd. Presses Universitaires de France, 1949.

(97) A.N.E.T., p. 101.

فهرس أعلام النصوص المدروسة

أ

آسيا الصغرى ١٥٣
إبابيس ١٥٢
إبجيوس ٧٣
أبولو ٣٧، ٣٨، ١٠٤
أبي بعل (الملك) ١٩
أتيكا ٨٢
أثينا ١٢٦
أرطميد ٩٥
أريوس (مترجم) ١٥٢
اسكلابيوس ٣٧، ١٠١، ١٣٥
اسكندرانيون ٢٣، ٦٧
أشور ١٩
أطلس ٧٦، ٨٧
أغاتوديمون ١٥١، ١٥٤
أغروتس ٥٩
أغروس ٥٦، ٥٩
أغروريس ٥٩
اغريق ١٧، ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٦٧، ١٢٢
أفروديت ١٢٦
إلياذة ١٩
إليوس ٥٦
أمنون ٦٣
أنوبريه ١٤٧
اوتوكتون ٧٣
أوديم ٣٥
أورانوس ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ٩١، ٩٤، ٩٥، ١١٨، ١٢٨، ١٤٧
أورجي ١٣٧، ١٥٥
أوزوس ٥٣
أوزيب ١٧
أوستانس ١٥٥
أوفيون ١٥٢
أوميكليه ٣٥
إيروس ١٠٠
إيزيريوس ١٣٧
إيل ١٤٧
إيلوس ٧٦، ٨٧، ١٢٠
أيون ٤٦، ٥٠

ب

باو ٤٦
براثي ٥١
برسيفون ٨٢
بروتوغون ٤٦، ٥٠
بعل سمين ٤٦
بعلتيس ١٣٠
بعلوس ١٠٤
بلوتون ١٣٠
بوثوس ٣١، ١٠٠
بوريه ٤٥
بوزيدون ١١، ١٣٠
بونطس ١٠٤، ١١١، ١١٨
بيتيل ٧٦، ٩٥
بير (النار) ٥٠
بيروت ١٩، ٧١، ١٣٠

ت

تاوتس ٦٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥
تحوت ١٥١
تقنيتس ٥٩
تيتان ٦٣، ١٤٢
تيتانيد ٩٥، ١٠١

ث

ثابيون ١٣١
ثاوث ٦٧
ثناتوس ١٣٠
ثوث ٢٣، ٦٧
ثورو ١٤٤
ثووط ٢٣

ج

الجبل الأقرع ٨٧
جبيل ٧١، ٨٦، ١٣٠
جيروم بعل ١٩
جينوس ٤٦، ٥٩
جينيه ٤٦

ح

حورا ٩٤

خ

خوزورس ٣٥

د

داغون ٧٦، ٨٢، ١٠١، ١٣٢
داماشيوس ٣٥
دمارون ٨٦، ١١١، ١١٨، ١٢٣
ديوسكورس ٦٨، ٨٧
ديو ملكيوس ٥٩
ديوني ٩١، ١٠٠، ١٣٠

ر

رحيَّه ٩١، ١٠٠، ١٣٠

ز

زوروسترا ١٥٤
زوس ٤٦، ١٠١، ١٠٤، ١٢٣

س

ساموتراسيون ٦٧
سانخونياتن ١٧، ١٨، ١٩، ٢٢، ١٤٣، ١٤٩
سممروس ٥١
سميراميس ١٩
سيتون ٧٦

ش

شوفسمين ٣١

ص

صديد ٨٩
صديق ٦٣، ٦٧، ١٠١، ١٣٥
صور ٥٣، ١٢٣
صور موبلس ١٤٤
صيدون ٣٧، ١١١
صيدونيون ٣٥

ط

طاوتس ٢٢، ١٣٢، ١٣٥، ١٤٤
طاووتو ٤٣، ١٤٤
طروادة ١٨، ١٩
طيفون ١٠٤

ع

عشتارتا ٩١، ٩٥، ١٠٠، ١٢٣، ١٢٦
علومس ٣٥
علوييم ٨٧
عليطي (غجر) ٦٣
عليون ٧١
عمونيون ٢٦
عوزوس ٥١

غ

غايه ٧٣، ٧٦، ٨٠

ف

الفارسي ١٥٤
فتاح ٣٥
فرفوريوس ١٩، ٢٢، ١٤٣
فريسيد ١٥٢
فلوكس (اللهب) ٥٠
فوس ٥٠
فيلون الجبيلي ١٨، ٢٢، ٣٠، ١١٤، ١٤٣
فيلون اليهودي ١٨
فينيق ١٣٧
فينيقيا ١٩، ٢٧، ٤٦، ٥٩، ٨٦، ١٣٧، ١٥٦
فينيقيون ١٧، ١٨، ٢٨، ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١

ك

كاسيوس ٥١، ٨٧
كبيرس ٦٧، ١٣٠، ١٣٥
كرونوس ٣٥، ٧٦، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٤، ١٠٤، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤
كرونيون ٤٧
كنع ١٣٧
كوريبانتس ٦٧
كوزارتس ١٤٤
كوشر ٥٦
كولبيا ٤٦

ل

لبنان ٥١
ليبس (الريح) ٣٥
ليل ٤٦

م

ماغون ٦٣
مصر ١٣٥
مصريون ١٧، ١٨، ٦٧، ١٤٤، ١٤٩، ١٥١، ١٥٤، ١٥٦
ملكارت ١١
موت ٣١، ١٣٠
موخس ٣٥
موس ١٩
ميصور ٦٣، ٦٧

ن

نوتس ٣٥، ٤٥
نيري (نهر) ١٠٤
نيف ٥١

هـ

هبسستس ٧١، ٧٣
هبسورانيوس ٥١، ٥٣، ٥٦
هرقل ١١١
هرقليوبولس ١٥٢
هرمس ٢٣، ٦٧، ٨٠، ٨٢، ٨٧
هزيود ١٤٢
هيفستس ٥٦
هيلينيون ١٥١
هيمارمين ٩٤

ي

ياو ١٩
يحود ١٤٧
يهود ١٩

فهرس المحتويات

المقدمة ٧

القسم الأول

المدخل إلى نصوص سانخونياتن ١٧

القسم الثاني

خلاصة لاهوت الفينيقيين القدماء ٣١

فيلون الجبيلي ومروية كرونوس ١٤٤

حواشي الدراسة ١٥٨

فهرس أعلام النصوص المدروسة ١٦٤

كتب فرفوريوس الفيلسوف عن سانخونياتن ما يلي:

«إن سانخونياتن البيروتي يقص مع الحرص الكبير على الدقة... وهو كان حصل على كتب «جيروم بعل» كاهن الإله «ياو»، وقدّم تاريخه لملك بيروت «أبي بعل»، الذي تلقاه مع جماعة من الفاحصين للحقيقة. وزمن هؤلاء الأشخاص يقع قبل حرب «طروادة»، وهو قريب من زمن «موسى»، كما يظهر ذلك من سجلات تعاقب ملوك فينيقيا.

«إن سانخونياتن الذي جمع وألّف باللغة الفينيقية وبأمانة جميع التاريخ القديم، اعتمد على الكتب الشعبية وعلى حوليات المعابد. وهو عاش في زمن «سميراميس»، ملكة أشور التي تذكر الحوليات أنها كانت تعيش قبل زمن حوادث «الإلياذة»، أو على الأقل في هذا الزمن. وقد تمت ترجمة عمل سانخونياتن إلى اللغة اليونانية بيد فيلون الجبيلي.»

(صفحة ١٩)